المبحث الثانى

نحو صياغة إستيراتيجية للإسلام العقلانى..نزعة تكاملية

مـــدخل: ضـــد منطـــق هانتنجتون .. التكتل من أجل التعايش

برغم تهافت طرحه النظرى الغائى عن "صدام الحضـــارات" يزخـــر الكتـــاب الأشهر لصامويل هانتنجتون بعدد من الملاحظات الموحية. منها مـــثلا غيـــاب دولة مركز تقود عالم الإسلام على منوال "الصين فى الحضارة الكونفوشيوسية، والهند فى الحضارة الهندوسية، وروسيا فى الحضـــارة المســـيحية الشـــرقية، والولايات المتحدة فى الحضارة الغربية" حيث تتنافس دول ست أساسية علـــى هذه القيادة وهى "إندونيسيا ومصر وإيران وباكستان والسعودية وتركيا" مـــن دون أن تتمكن إحداها على تحقيق إجماع حول قيادتها لوجود قصورات متباينة لدى كل منها:

فإندونيسيا رغم حجمها السكانى الكبير، ونموها الإقتصادى المشهود، تبقى دولة طرفية بحكم موقعها الجغرافى البعيد عن قلب العالم الإسلامى، فضلا عـــن أن سكانها خليط منوع من جنوب شرق أسيا، وثقافتها بمثابة تشكيل مـــن أصـــول ومؤثرات عدة إسلامية وهندوسية وصينية ومسيحية.

وباكستان هى الأخرى تحوز الحجم الجغرافى المناسب، والتعـــداد الســـكانى الكبير فضلا عن القدرة العسكرية الكبيرة وعلى رأسها السلاح النووى، غيـــر أنها طرفية نسبيا قياسا الى القلب العربى للإسلام، وفقيرة الى حد كبير، ناهيك عن كونها منقسمة إثنيا وتعانى من عدم الإستقرار السياسى.

وإيران كذلك تحوز كتلة حيوية متميزة على صعيد الحجم الجغرافى والتعـــداد السكانى، فضلا عن موقعها المركزى فى الشرق الأوســـط، وثرائهـــا النفطـــى الكبير، غير أنها شيعية بينما ٩٠% من المسلمين ينتمون الى المذهب الســـنى، كما أن لغتها محلية لا تحوز شعبية اللغة العربية فى عالم الإسلام.

وتركيا يتوفر لها الحجم والموقع الجغرافى المناسبين، والبنية السكانية الجيدة، فضلا عن مستوى النمو الإقتصادى المتوسط، والتماسك الوطنى والتقاليد العسكرية العريقة، ولكن موطن قصورها يكمن فى إستمرار تعريفها لنفسها كدولة علمانية، وتوجهها الغربى الواضح برغم بروز صحوة إسلامية معتدلة.

وأما **السعودية** فهى مهبط الإسلام، وكعبة المسلمين ما يمنحها نفوذا روحيا هائلا، ولديها أعلى إحتياطيات للنفط فى العالم ما يمنحها نفوذا ماليا كبيرا، غير أنها تعانى من عجز ديمغرافى يجعلها معتمدة أمنيا على الغرب، كما أن مذهبها الدينى المتشدد، وتقاليدها الإجتماعية المحافظة لا يجعلانها النموذج الأكثر جاذبية لعالم الإسلام المتنوع.

وآخرا مصر التى تملك الموقع الجغرافى المركزى فى الشرق الأوسط، والكتلة الحيوية المتميزة على أصعدة الأرض والسكان، والقدرة العسكرية المناسبة، فضلا عن حيازتها للأزهر وهو المؤسسة القائدة فى التعليم الدينى، ولكنها فقيرة تعتمد إقتصاديا على الولايات المتحدة والمؤسسات الدولية التى يسيطر عليها الغرب.

ونتصور هنا أن القصور يبدو بنيويا مانعا لدى دول أربع وهى إندونيسيا، وباكستان، والسعودية، وإيران. وفى المقابل يبقى ظرفيا طارئا لدى دولتين تعانيا من قيود قابلة للحلحلة وهما مصر لو نهضت إقتصاديا، وتركيا لو أرادت سياسيا.

غير أن الضغط الأمريكى الشديد على القلب العربى للإسلام منذ ١١ سبتمبر وما يثيره من إحتمالات الفوضى والتفكيك العرقى والطائفى، وكذا ردود الفعل المضادة من حركات التطرف الدينى وما تمارسه من فوضى الإرهاب العدمى منذ إحتلال العراق، إنما يفجران مسألة القيادة ويجعلان منها أولوية قصوى لا تنتظر فراغ تركيا من مهمة إعادة إكتشاف نفسها، أو مصر من عملية إعادة بناء ذاتها.

وهنا تكمن حيثيات دعوتنا الى تشكيل "كتلة مركزية" لملء الفراغ الإستيراتيجى العربى، وصياغة حس إتجاه عقلانى حول قضايا العالم العربى/ الإسلامى إنطلاقا من قناعة أساسية وهى أن عجز نظم الحكم الوطنية عن دفع

المظالم الغربية فرادى، وعن تكريس نوع من التكتل فيما بينها إنما يترك فراغا هائلا يسمح لجماعات العنف بالحركة والتمدد تحت زعم ممارسة الجهاد ضد المظالم الغربية، ما يشوه وجه الإسلام ويورط مجتمعاتنا فى صراعات حادة مع الغرب، ومن ثم فلن يتم الخلاص من العنف إلا بملء هذا الفراغ عبر مشروعات تنهيض وطنى، وتكتل إقليمى تتجاوز حديث العادة الثقافية عن "التعايش الحضارى" الى صياغة منظومة إستيراتيجية تحرس هذا التعايش.

هذه الكتلة "المركزية" لابد وأن ترتكز على العوامل الهيكلية التى صاغت ما نسميه بـ "الذكاء التاريخى لجغرافية الإسلام السياسية". فهذا الذكاء هو الذى شكل "الدولة العربية الكبرى" التى تمكنت بإلهام العقيدة الإسلامية من الهيمنة علي أغلب الإمتداد الإمبراطوري الروماني في العالم القديم بعد إندحار روما الغربية وإسلام فارس، وإنزواء الإمبراطورية الرومانية الشرقية حول بيزنطة، حيث تحرك مركز قيادتها تاريخيا من المدينة المنورة، الى دمشق، الى بغداد ثم القاهرة، ولنحو ثمانية قرون مثلت الموجة الأولى لهيمنة الإسلام على جغرافية العصور الوسطى.

– وهو الذى مكن الدولة العثمانية،عبر التقاليد العسكرية العريقة للعنصر التركى، من فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ووراثة الدولة العربية وتدشين الموجة الثانية لهيمنة الإسلام التى إمتدت لنحو القرنين وربع القرن حتى حصار فيينا عام ١٦٨٢م، وإن بروح عسكرية أكبر، وعطاء معرفى أقل جعلها تتآكل تدريجيا حتى كان سقوطها المحتوم مع الحرب العالمية الأولي بعد رحلة طويلة من الركود حملت فيها لقب "رجل أوربا المريض".

– كما مكن إيران، بكتلتها الحيوية الكبيرة وتقاليدها الحضارية العريقة، من لعب دور القطب المعارض داخل الحضارة الإسلامية، فى مواجهة المركز العثمانى السنى وخاصة فى العهد الصفوى "١٥٠٢ ـ ١٧٣٦" الذى شهد تشيعها الرسمى. وقد دارت أغلب صراعات الجانبين حول العراق وولاياته الثلاث التى كانت أقرب لكونفيدرالية متماسكة إسميا تحت التاج العثمانى ولكنها مستقلة فعليا وخاضعة للنفوذ الإيرانى بأكثر من شكل، وفى أكثر من لحظة تاريخية وحتى عقد معاهدتى: ["أرضروم" الأولى عام ١٨٢٣ التى أكدت على حرية الإيرانيين فى زيارة الأماكن المقدسة بالنجف وكربلاء فى العراق، وفى

آداء فريضة الحج الى الحجاز. ثم أرضروم الثانية عام ١٨٣٧ والتى منحت لإيران السيطرة على مدينة المحمرة ضمن إقليم عربستان، وإحتفظت للعراق بمدينة السليمانية]"[١].

- وفى الوقت نفسه حرم "القوة المغولية" التى هيمنت على آسيا الوسطي في القرن الثاني عشر الميلادي، وتمكنت في الثالث عشر من إجتياح الدولة العربية وإسقاط الخلافة في بغداد، من ترسيخ بؤرة قيادة نافذة تاريخيا. ورغم أن المغول إعتنقوا الإسلام بعد هزيمتهم فى مصر وأخذوه معهم الى شبه القارة الهندية والى تخوم الصين، فقد تجاوزهم التاريخ نظرا لبنيتهم الإجتماعية الرعوية، وعجزهم عن الإبداع المعرفى ومن ثم العطاء الحضارى.

وبتأمل هذا التاريخ نجده تحرك فى فضاء إستيراتيجى لستة مراكز كبرى معاصرة، خمسة منها بمثابة حضارات قديمة تجددت أو أعادت إكتشاف نفسها فى إطار الإسلام. والمتصور أن لا تخرج حدود الكتلة الإستيراتيجية المطلوبة عن هذا الفضاء والذى يلتئم حول نواه مركزية عربية "السعودية وسوريا والعراق ومصر" صاحب الخبرات العديدة الناجحة فى صياغة وتنمية حس اتجاة قومى تجاة القضايا الكبرى.

هذه الكتلة المركزية يتوجب عليها أن تصوغ تحالفا/ علاقة عضوياً راسخا مع "إيران" كشريك حضارى، وجار جغرافى يشارك العالم العربى مخاوفه من تحالف الصهيونية المسيحية مع اليمين الأمريكى المحافظ ضد المنطقة، وذلك عبر أى صيغة من الصيغ الممكنة.

على أن يرتبط التحالف العربى - الإيرانى بدوره مع تركيا بآلية تنسيق دائمة، لأهمية دورها فى التعاطى مع قضية الوجود الكردى وهى إحدى أبرز القضايا المتفجرة فى المنطقة، ولجاذبية نظامها السياسى وموقعها اللذان يجعلان منها جسرا الى الغرب.

هذه الكتلة، والتى تمثل تحالفا سنيا - شيعيا يمثل كل المسلمين، ربما تكون الطريق الأمثل لإعادة صياغة دور الإسلام فى النظام العالمى باعتباره ذلك الإطار الحضارى الذى يستوعب حياة ربع البشرية أو أقل قليلا، ونحو ١٥%

[١] - فهمى هويدى، العرب وإيران .. وهم الصراع وهم الإتفاق، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

من جغرافية العالم بما تحتويه من تناقضات إستيراتيجية حادة، ومشكلات سياسية مزمنة، وإحتقانات ثقافية عميقة:

- **فعلى المستوى الإستيراتيجى** تبدو هى الأكثر تأهيلا لإستعادة العراق من خلال حوار جاد مع الولايات المتحدة، لأنها الأكثر قدرة على تحمل الإلتزامات المطلوبة لإعادة تأهيلة، وأطرافها "الخمس" هم الفاعلين الحقيقيين فى الشأن العراقى، فهم إما يحوزون مصالح يدور حولها صراع داخله، أو يملكون أوراقا للتأثير فى مواقف المتصارعين، أو حتى أدواراً مهمة فى منح الشرعية القومية لعملية إعادة التأهيل برمتها.

كما تبدو الأكثر قدرة على حلحلة الأزمة النووية لأن خبرة "العمل المشترك البناء" بين إيران والولايات المتحدة فى العراق سوف تزيل الكثير من سوء الفهم، وتمد جسور الثقة بين الطرفين المتصارعين. فإذا كانت إيران تتشدد إزاء الولايات المتحدة وتسعى لإمتلاك سلاح نووى طلبا للإحترام، فلأن الأخيرة تحاصرها وتتعامل معها بغطرسة تثير رغبتها فى التحدى، وإذا كانت الولايات المتحدة لا تبدى إحتراما كافيا للنظام الحاكم فى إيران فلأنها تعتقد فى عزلته وهو نهج سوف تكتشف نزقه بوضوح التضامن العربى معها فى طلب الإحترام القومى، وفى حفظ الكرامة القومية.

- **وعلى المستوى السياسى** ربما كانت هى الأنسب كمدخل لحل الصراع العربى - الإسرائيلى إذ يؤدى تفكيك الإحتقان حول العراق والمشكلة النووية بالضرورة الى عقلنة الدور الإيرانى وتصفية إحتقانات الأزمة السورية - اللبنانية، والكشف عن ضعف حاجة الولايات المتحدة لإسرائيل وتعرية دورها الإقليمى المضاد دوما لحركة التفاعل التلقائى فى المنطقة ما قد يدفعها للضغط عليها نحو تسوية سلمية عادلة. وعلى الأقل تستطيع هذه الشراكة كسر الحصار الجارى لعدد من الدول العربية من خلال إحتواء الإحتقانات المتزايدة بها وحولها منذ إحتلال العراق، وإغتيال الحريرى ثم نجاح حماس فى الإنتخابات وتشكيل حكومة فلسطينية. ثم إعادة صياغة الإصطفاف العربى فى مواجهة القضايا الأساسية المثارة الى وضعه الطبيعى بحيث يكون هناك موقف عربى مشترك يتسم بالعقلانية والإعتدال والإيجابية من القضايا الأساسية فى

فلسطن والعراق وسوريا ولبنان مدعوم إيرانيا، ضد الموقف الإسرائيلى المتعنت أو الأمريكى المتغطرس.

- **وعلى المستوى الثقافى** تبدو هذه الكتلة بمثابة الطريق الأوحد لإمتصاص المد الإرهابى فى المنطقة لأنها تخلق لغة حوار بديلة بين النظام العالمى والدولة التى تتحكم فى مصائره، وبين الثقافة التى يدعى الإرهاب التعبير عنها والتى تضم أساسا الأعراق الثلاث التركى ــ الفارسى ــ العربى التى جسدت الصور النمطية السلبية التى تتابعت فى الوعى الغربى عن الإسلام منذ إلتبست "بالتركى القاسى المدجن بالسلاح على أبواب أوروبا الحديثة، ثم الإيرانى مدعى الإلتباس بروح الله ليخلع على أمريكا والغرب المعاصر صورة الشيطان منذ سبعينيات القرن الماضى، وأخيرا العربى الذى تجاوز شهوانيته الجنسية الموروثة الى شهوانية قتل الغربى ولو أدت الى إهدار الذات".

وإذا كان إرهابيوا العالم العربى المعاصرين أمثال بن لادن والظواهرى والزرقاوى قد تمكنوا من إختطاف الصورة الذهنية عن الإسلام. وإذا كانت القاعدة كتنظيم معولم للإرهاب قد تمكن من فرض منطقه بعد إحتلال العراق الذى منحه هامشا من المشروعية، وجغرافية أوسع للحركة، فإن هذه الكتلة الإستيراتيجة بتوجهها المعتدل والسلمى، وبإحترام الغرب والعالم لمنطقها قادرة على إستعادة وعى المسلمين، وحرمان الإرهاب من شرعيته، لأنها بإختصار تعيد للمسلمين الشعور بالكرامة المهدرة.

وهنا قد تكمن المفارقة، فبينما تصور صامويل هانتنجتون الصراع على قيادة العالم الإسلامى بين المراكز الست فى إطار صراعى مع الغرب، فإن نهوض هذه الكتلة بتجسيد إطار لـ "الإسلام الحضارى" يتفاعل معه الآخرون "باحترام يصون كرامته" ربما يكون طريقا الى التعايش الحضارى بين بنيات تاريخية حية وفاعلة تجاوزا لحديث العادة الثقافية من داخل غرف مغلقة عن "حوار الحضارات" الذى يبقى دعائيا ومحبطا أمام ضغوط الأحداث و "صدام السياسات". وفى هذا السياق نجد أنفسنا أمام ثلاث مهمات أساسية يترتب كل منها منطقيا على سالفتها ومن ثم فهى متدرجة فى أولوياتها، وحسب هذا التدرج نوالى وقفتنا الموجزة عند كل منها.

أولا: نحو إعادة بناء المحور التاريخى العربى

يعيش الفكر السياسى العربى منذ تسعينيات القرن العشرين حالة من الاستقطاب الحاد تطال من تصوره للحاضر والمستقبل معا، وهى حالة تتغذى على نوع من الشكيه الجذرية المتنامية فى الوجود العربى كله بعد أن أخفقت كياناته السياسية القائمة فى مهمة تأمينه إستيراتيجيا، وقيادته حضاريا، وهو أمر جعل من كل كبوات الأمة تحديات وجودية تثير الأسئلة الصعبة والمركبة والمربكة معا، تلك التى يتجاوز أفقها فضاء السياسى/ العملى حول الوسائل والأدوات التى بها نتجاوز كبواتنا إلى فضاء الحضارى/ الكلى حول موقعنا فى الزمن ودورنا فيه؟.

ولا شك فى أهمية طرح أسئلة المصير والجدل حولها فى كل ثقافة إنسانية حية ولكن المشكلة الحقيقية لدينا ترجع الى "العجلة" التى تلبى مقتضيات رد الفعل تجاه كل أزمة راهنة أو حيوية من ناحية. ومن أخرى الى "الجذرية" التى تكشف عن شك عميق فى "الذات" القومية نفسها وليس فى الملابسلات المحيطة بها الآن، أو المتعلقة بهذه الأزمة أو تلك على نحو خاص، وهو ما يرجع فى إعتقادنا الى نقطة ضعف تاريخية فى الثقافة السياسية العربية تتعلق بذبول ما نسميه بـ "العقلانية التاريخانية" أى ضعف الوعى العربى بمقومات وجوده التاريخى، وعجزه من ثم عن الإمساك بما يعتبره الأصل فى هذا الوجود، وتاليا عجزه عن إعمال إرادته لحماية هذا الأصل، ما يجعله تائها بين غيره من مقومات، أو مختلطا بما هو تفاصيل لا تنتمى لجذره كـ "أصل"، وجميعها أمور تربك تفاعل العقل العربى مع ظاهرة السياسة وما تنتجه من أزمات وتحديات لوجوده، وذلك لصالح نمطين آخرين من الوعى بها يشكلان نوعا من الإنحراف الى يمين أو يسار النمط العقلانى التاريخانى، وهما الواقعية البراجماتية من ناحية، والسلفية التاريخية من ناحية أخرى.

١- ضد الواقعية البراجماتية .. العقلانية التاريخانية العربية

والعقلانية التاريخانية مفهوم يعكس نوعا من الوعى بالتاريخ وحركته ومساراته وأنماط الفعل فيه تتوفر له الأصالة والمرونة معا. فهو أصيل لأنه ينطلق من أعمق مكونات ومقدسات الذات الواعية التى تجسد ثوابتها وتحوز مقومات إستمرارها. وهو مرن لأنه يتوسل دائما عند تفاعله مع الحوادث الجديدة والوقائع المتغيرة بالقدرة على التكيف الخلاق والتى تمكنه من إستحداث أفضل

الصيغ الممكنة للدفاع عن الثوابت التى ترسخت باعتبارها كذلك فى العقل الجمعى، بالوسائل التى تتيحها اللحظة المتغيرة وباللغة التى يفهمها الفاعلون الآخرون المحيطون بها ودون اهدار لهذه الثوابت.

والعقلانية التاريخانية بهذا المعنى تعكس نموذجا للوعى ينحاز للإستيراتيجى على حساب التكتيكى تأكيدا للتاريخانية، وينحاز للكلى والشامل والمنظومى على حساب الجزئى والنوعى والفردى تأكيدا للعقلانية. كما ينحاز خصوصا الى فكرة الإرادة القومية وأولويتها ودورها فى التاريخ على حساب الحتمية، والإطلاقية، التى ميزت فلسفات التاريخ المتطرفة سواء فى المثالية والتى نحت باتجاه العنصرية كالهيجيلية، أو المتطرفة فى المادية والوضعية كالماركسية.

وفى الحالة العربية تكاد تعنى العقلانية التاريخانية إرادتى التعقل، والتكتل اللتين تصوغان نوعا من الوعى يكفل السعى العقلانى والتحرك الرشيد نحو المصالح العربية العليا، ويفرض من ثم مسئولية تضامنية على الأمة كلها إزاء كافة قضاياها الكبرى فلا يستطيع أى طرف التحرر منها إلا عاد ودفع الثمن لهذا التحرر الذى يؤول عند الحساب التاريخى باعتباره تخاذلا لا تحررا، فهذه المسئولية التضامنية هى المفهوم/ الآلية العملية المعبرة عن الضمير القومى والذى لا يسمح لأحد بالخروج عليه إلا بثمن باهظ قد يدفعه الأبناء وربما الأحفاد، ذلك أن التاريخ قد لا يذكر التفاصيل الدقيقة ولكنه يحتفظ بالمسارات الكبرى، كما يحتفظ للإرادات الفاعلة فيها بدورها ومكانتها التى تليق بها.

وهنا تكمن حقيقة أساسية، بل محورية تستبطن عقلانيتنا التاريخانية، وهى عمق الترابط الوجودى بين العروبة الثقافية والعروبة السياسية. ما يعنى الارتباط المؤكد بين الانتماء الثقافى، والمحددات الاستراتيجية للإقليم العربى كقدر تاريخى لن يغيره حتى الاعلان الرسمى مدفوع الثمن فى صحف الغرب وأمريكا نفسها بأننا لم نعد عربا، ولن يكون كافيا ليتعاملوا معنا على هذا الأساس، وهى قضية مهمة لأن بعض الدول أخذت تتفلت من سياج العروبة "السياسية" لتتصرف وحدها إزاء العالم بتصور قدرتها على التعامل معه بعيدا عن الشروط العامة التى يفرضها الانتماء الثقافى للجغرافيا العربية، وهو خطأ جسيم، فخصوم الأمة قد يشجعون هذا الاتجاه "الإنفلاتى" لا قبولا بمنطقة بل توظيفا نفعيا له ــ كحصان طروادة ــ ضد الحس الإستيراتيجى للإقليم العربى

ولو بمزايا مؤقتة. وهناك شواهد عديدة لهذه المحاولات وهذا التوظيف، وربما لا يخرج العراق نفسه الذى صار موضوعا له اليوم، عن كونه إحدى النهايات المأساوية لهذا الإتجاه الإنفلاتى.

وهنا يمكن الإدعاء بأن الحقيقة القومية فى عالمنا العربى هى حق وواجب فى الوقت ذاته فلن يكفى لقطر عربى أن يهمل عذابات الشقيق العربى ليتعامل معه الآخرون كغير عربى، بل سيظل مع ذلك مسئولا عن عروبته، فالمهرولون إلى أحضان الخصوم لن ينظر إليهم باعتبارهم غير عرب بل كـ "عرب محبطون" تدفعهم إحباطاتهم الى الخضوع وعندها يتم تخفيض شروط التعامل معهم الى درجة الإرغام. وهذا هو الواقع الذى تعيشه معظم بلداننا العربية فى اللحظة الراهنة.

والعقلانية التاريخانية بهذا المعنى يواجهها بالتشويه مفهومان ينحاز كل منهما إلى أحد مقوميها سواء العقل أو التاريخ على حساب الآخر فيفقد الوعى الكامن فى كل منهما إما اصالته وإما مرونته:

الأول منهما هو السلفية التاريخية التى تمعن فى الانحياز للتاريخ حتى تحيله إلى أسطورة متعالية على الواقع تماما تملك قوة تفسير إيديولوجى حتى لأكثر الحوادث عملية ومباشرة، وهى بذلك تعلى البعد الماضى فى الزمن على حساب الحاضر والمستقبل معا ما يؤدى إلى تشوه الروح التكاملية للحركة التاريخية ويُفقد الوعى التاريخى مرونته. فمع العدوان العراقى على الكويت وملابساته بداية التسعينيات الماضية، تحركت ملكة التساؤل الوجودى فجاءت الاجتهادات العجلى بالعنف السياسى "المتأسلم" فى الجزائر وتونس ومصر ومن قبلهما فى السودان بحثا عن أصالة مفتقدة بدت هى الحل السريع لدى الفصيل الأكثر تطرفا من التيار السلفى، وذلك على نحو أساء الى عقيدة الأمة وعطل نهوضها الحضارى وتكتلها الإستيراتيجى.

وأما الثانى فهو العقلانية البراجماتية التى تفرط فى تسطيح العقل وتفترض كونه آداتيا عمليا إنتقائيا فتحيله من مركب للوعى الشامل إلى مركب للمصلحة المباشرة، ثم تصوغ سقفا محدودا لحساباتها "العقلانية" ازاء الواقع المتغير بالضرورة يكاد يتحدد فى إمتداده الأفقى بالموقف الواحد

منفصلا عما قبله أو بعده مهملا لما هو إستيراتيجى من خيارات، وما هو بنائى من مكونات. كما يتحدد فى إمتداده الرأسى بالمصلحة المادية السافرة أوالمباشرة دون المعنوية/ الرمزية ما يستفز أصالة الأمة ومستودعات هويتها للإشتباك معه فيبدو هذا التيار دوما وكأنه فى حركة ضد التيار موقوته فى كل الحوال، وفاشلة فى أغلبها لأنها تفصل بين الجغرافيا والتاريخ، أو بين السياسة والثقافة، الأمر الذى يؤدى إلى تقليص مجال العقلانية نفسها، بالاضافة إلى تشويه تكاملية الحركة التاريخية أيضا بإعلاء البعد الحاضر فى الزمن على حساب البعدين الآخرين: الماضى والمستقبل وهى إنحيازات وتشوهات ربما تحقق مكاسب عاجلة ولكنها بالقطع موقوتة سرعان ما تؤدى إلى خسائر فى الأجل الطويل أهم وأعمق من تلك المكاسب الموقوتة مما يفقد الوعى التاريخى أصالته وربما مرونته أيضا.

وفى إتجاه عكسى لتيار السلفية التاريخية الذى أفرط فى الرجوع الى الماضى بحثا عن أصالة الأمة، أخذ هذا التيار البراجماتى منذ منتصف التسعينات من القرن الماضى يتشكك فى كل محاولة للتأكيد على أصالة الأمة تحت وطأة إعتقاد أو ربما "ذريعة" أنه لم يعد هناك وقت أو حتى ضرورة للحديث عن "أمة" من الأساس إذا أردنا كأوطان اللحاق بالعصر. هذا التيار "البراجماتى" الذى يدعى العقلانية السياسية ويتزايد نموه فى أرجاء الوطن العربى إنما يقع فى أسر لحظة قنوط تاريخى تكاد تشبه إلى حد كبير تلك اللحظة العدمية التى عاشتها أوربا بعد الحرب الثانية حيث ازدهرت التيارات العبثية فى الأدب والفن، وتيار الوجودية الملحدة فى الفلسفة لأن سؤال الهوية آنذاك كان مواجها دائما بمركب من الشك الذى طال كل المستويات، وتخلل كل اليقينيات التى كانت قد وقرت فى العقل الأوربى وجعلته كذلك فلم تكن هناك حاجة ولا حتى فرصة تحت وطأة الانهيار الكبير للحديث عن يقينيات تخرج من الأرض أو تهبط من السماء.

ولقد تجاوزت أوربا هذه اللحظة العدمية ليس فقط لأن الولايات المتحدة الامريكية "حيوية الغرب آنذاك" كرست طاقتها لاعادة إعمارها بمشروع مارشال، بل لكون أوربا نفسها هى التى صاغت وجسدت لقرون عدة سابقة

تقاليد الغرب الكلاسيكية: الاخلاقية والمعرفية والسياسية، وكانت قد تمكنت عبرها جميعا من أن تضع نفسها على قمة هرم القوة والثروة والمعرفة، وأن تصوغ مسميات حقب الزمن الثقافى المعتمدة فى الفكر الانسانى كله تقريبا من عصر النهضة الى الاصلاح الدينى، مرورا بالتنوير، والثورة الصناعية وصولا الى الحداثة. وقد إستقر فى وعيها، ولا وعيها الثقافى معا أنها صانعة تاريخها، ومالكة تجربتها، والقادرة على إحياء عقلانيتها، وإسترداد تاريخها الحديث/ القريب. وذلك على العكس من عالمنا العربى الذى يعانى من فقدان الشعور بالجدارة التاريخية مع كل أزمة سياسية، ربما لأن تقاليده الكبرى التى شيدت تاريخه صارت بعيدة فى كهوف الزمن العتيق، ولأن تقاليدة الحديثة لم تكن قد إكتملت له أو أينعت فيه عندما هاجمها صناعها الأصليون، فلم تكد تكون بعد من جوهره أو فى أصل تكوينه أو جذرا من جذوره، وهو الأمر الذى يجعله اليوم أسيرا لروح التشاؤم.

ولن يعدم العرب فى كل مراحل تطورهم وإزاء أهم قضاياهم ذلك الجدل المتجدد بين تيارين؛

أولهما يكتسى بثياب العقلانية التاريخانية مستندا إلى أصالة الدعوة القومية ورسوخها داعيا إلى الوحدة أو التكتل القومى باعتباره السبيل الأمثل للحفاظ على المصير أيا كانت متغيرات العقود الزمنية والحقب الاستراتيجية التى لا تستطيع أن تسلب التاريخ القومى وعيه الأصيل لأنها فى الحقيقة لا تستطيع أن تغير أو تستبدل فى مقدسات الأمة ومحرماتها.

وثانيهما يكتسى بالعقلانية البراجماتية مبررا نفسه بالأزمة العامة المحيطة بالأمة فى تاريخها الحديث، وبالعجز المهيمن على نظامها المؤسسى فى الحقبة المعاصرة بحيث يمنعه من عقاب المخطئين أو المنفلتين، داعيا، أى هذا التيار، إلى الإنفلات والخلاص بالذات القطرية من وطأة التغيرات العالمية وسذاجة المثاليات القومية.

غير أن الحساب التاريخى غالبا ما ينتصر لتيار التاريخانية على حساب البراجماتية بمعيار المصداقية وإن كان يقتص من التيارين معا بمعيار المسئولية، ولعل أصدق مثال على ذلك القضية الفلسطينية والتى استمرت معظم

هذا القرن وجعا فى قلب الأمة كلها بغض النظر عن المسئول المباشر عن تفجرها بضياع الدولة الفلسطينية وأيضا عن الصراع السياسى الذى أحاط بها عند نشأتها وأثناء تطورها بين القيادات العربية، والاتهامات المتبادلة بالخيانة، أو الجدل حول مسئولية الفلسطينيين أنفسهم عنها. ذلك أن التاريخ قد لا يذكر التفاصيل الدقيقة ولكنه سحتفظ بالروح العامة لها، كما يحتفظ للإرادات الفاعلة فيها بدورها ومكانتها التى تليق بها. وقد احتفظ لنا من هذه القضية بالمرارة فى الحلوق، والمسئولية المتجددة عن تصحيح الأوضاع، وهى مسئولية تتوارثها الأجيال وتسفك من أجلها الدماء لأكثر من خمسة عقود وخمسة حروب ولا يزال التاريخ مستمرا.

وربما كانت الأزمة العراقية منذ تفجرها عام ١٩٩٠ م هى الأكثر تعبيرا عن تهافت العقلانية التاريخية، حيث وقع العالم العربى، كله تقريبا، فى أسر البراجماتية بالإختباء لأكثر من العقد خلف شعار استخدم كآلية تبريرية وهو التمييز بين النظام والشعب، فالتعاطف "الأخلاقى" مع الشعب قائم فى محنته، ولكن الحصار "الشامل" مضروب حوله عقابا للنظام على خطيئته رغم إدراك الجميع لوجود سيناريو خفى للولايات المتحدة فى العراق يستهدف المنظومة العربية كلها. ومع الإحتلال الفعلى للعراق أخذت مكانة وأهمية القوى المركزية فى النظام العربى وخاصة مصر والسعودية وسوريا فى التدهور كتعبير عن الحضور الجديد والمختلف للولايات المتحدة فى المنطقة والذى صار ضاغطا غير قانع بأنماط التأثير السابقة فيها، عبر التفاهمات مع دولها الكبرى المعتدلة، ونازعا الى حصارها عبر الأدوات والأدوار والدول الصغرى التى باتت تحتل أهمية استثنائية معوقة لتماسك النظام العربى من داخل العباءة الأمريكية عندما أخذ صوتها يعلوا نشاذا ضد التوجهات العامة التى طالما صاغتها الدول الكبرى.

وبعد فترة من الزمن لم تطل أخذت الدول الكبرى نفسها تتحرك نحو الموقف الأمريكى لتلعب هى الأخرى أدوارا صغرى ربما خوفا من التهميش على المسرح الإقليمى، أو من تحلل نظمها الراكدة بفعل الضغط الأمريكى السافر، أو ربما رغبة فى الفوز بمغانم من نوع ما يتباين فى كل حالة عن الأخرى حيث سهلت البراجماتية العربية مهمة المشروع الأمريكى للإحتلال فتمكنت الولايات

المتحدة من إختطاف القضية العراقية برمتها وعزلها عن المجتمع الدولى والتغطية على جرائمها هناك خاصة فى أبو غريب، والفالوجة. بل وحتى عندما بدت المقاومة عاتية، والورطة بادية للوجود الأمريكى هناك لم يتراجع الشعور بالخوف على وحدة العراق، كما لم يتوقف الشعور بالإنكسار والهشاشة والذبول، بل أنه بلغ ذروته فى تلك اللحظة التاريخية التى سعت فيها الولايات المتحدة الى الحوار مع إيران حول مصير العراق أحد أركان الأمة العربية التى بدت وكأنها تصير الى موقع الرجل المريض فى الشرق الأوسط.

٢- ضد الفراغ الإستيراتيجى .. الذكاء التاريخى للجغرافيا العربية

وبرغم الظرف العربى الراهن تبدو تلك الحالة الواهنة/الشكية مغالية، بل تكاد تكون زائفة إذا ما أصغينا الى همس الجغرافيا العربية التى تحوى مراكز كبرى من أعصاب حساسة وبؤر تأثير حاسمة تحركت تاريخيا من المدينة المنورة حيث سكنت الدولة العربية الأولى لنحو الخمسين عاما فى الحجاز، الى دمشق حيث إستقرت الخلافة الأموية/ الإمبراطورية العربية الأولى لنحو المائة عام، الى بغداد قلب الحضارة الإسلامية وموطن الخلافة/ الإمبراطورية العربية الثانية التى كانت بدورها اللاعب الأساسى فى الشأن العالمى لنحو خمسة قرون، الى القاهرة التى إستضافت "شبح" الخلافة العباسية بعد سقوطها فى بغداد لنحو القرنين ونصف القرن لعبت مصر خلالهما دور الركن فى الحضارة العربية الإسلامية ضد الصليبين والتتار قبل أن تستسلم للدولة العثمانية الصاعدة مع مطلع القرن السادس عشر بعد أن كانت طاقة إبداع الحضارة العربية قد أستنزفت، وكان النموذج المعرفى الصورى الذى نمت فى ظلة وارتكزت عليه قد أشرف على الأفول، وجغرافية العالم الكلاسيكى قد تضاءلت بفعل حركة الكشوف الجغرافية وإنبثاق العالم الجديد فى الأمريكتين.

وهنا يمكن إكتشاف نوعا من "الذكاء التاريخى" إنتقل معه مسار الفعل فى الجغرافيا العربية تدريجيا من فلك التأثير الدينى حيث المكون العقيدى ملهما مركزيا، الى فضاء التأثير العقلانى حيث الكتل الحيوية ومن ثم القدرات الإستيراتيجية حاكما موضوعيا لهذا الفعل. ومن ثم كان الإنتقال المتتالى من الكتلة الحيوية الأصغر فى المدينة، الى الأكبر فى دمشق، فالأكبر فى بغداد، وصولا الى القاهرة حيث سارت القيادة فى التاريخ العربى تدريجيا فى موازاة

الدوافع الموضوعية وعلى رأسها مركزية الجغرافيا وديناميكية البشر ومؤخرا جاذبية الثقافة، بقدر ما كانت تنفصل تدريجيا عن الدوافع الأخلاقية وعلى رأسها الإيمان القلبى والشجاعة الفردية ومحورية النص، والتى صارت تأثيراتها على حركة التاريخ "مكملة" قياسا الى العوامل الموضوعية الأساسية.

وفى القرن العشرين تكثفت معطيات هذا الذكاء لترسم للتاريخ العربى مسارا واعيا الى درجة تتيح قراءة الواقع العربى الذى شهد أكثر عقوده تطورا وديناميكية عندما كان الجميع يدركون هذا المسار ويخضعون لمنطقه. وعلى العكس، كانت أكثر عقوده إضطرابا عندما كان يتم تحدى هذا المسار وذلك عبر طريقين:

الأول: هو محاولة تعطيل خطواته أو إعادتها الى الوراء من قبل المركز السالف، وهى المحاولات التى إرتبطت فى الأغلب بالعراق وأثارت توترات عديدة فى لحظات عدة بدا فيها وكأنه لا يعترف بالمعطيات الموضوعية لحركة التاريخ، والمسار الذى رسمته لتسلسل القيادة فى الجغرافيا العربية والذى كان قد تجاوز مكانه وليس مكانته، ومنح دفة قيادته الى الكتلة المصرية.

أما الثانى: فهو تنكر الوريث الجديد لمراكز القيادة السابقة على هذا المسار، فانتقال القيادة لم يكن يعنى ذبول السلف بل مجرد إضطلاع الوريث بعبء أكبر نسبيا فى إطار الجهد العام المفترض أن يبذل لتأمين الجغرافيا العربية فى المنحى السلبى أو قيادة تطورها الحضارى والإستيراتيجى فى المنحى الإيجابى. وعندما كان هذا الإدراك يتعرض للتشوه أو الإختزال كانت الجغرافيا العربية تتعرض للخطر، ناهيك عن تطورها الحضارى الذى كان يسبق الى الجمود.

ويلهمنا هذان الوجهان للذكاء التاريخى سر أسرار الجغرافيا العربية التى لم تعد كما كانت فى العصر الوسيط "مرتفع قوة عالمى" تحتمل التمزق والإختلاف، بل "منخفض قوة إقليمى" لا تملك ترف التشتت وإلا تعرضت لعوامل التعرية السياسية، ومخاطر الفراغ الإستيراتيجى كما تشى خبرات القرن العشرين:

- فحرب أكتوبر تمثل خبرة مثالية كاملة وإيجابية على صعيد هذا الذكاء حيث إضطلعت مصر أساسا ومعها سوريا بعبء المواجهة مع إسرائيل، بينما كان العراق والسعودية فى موقع الجناحين يمينا ويسارا، وذلك من دون تنكر لبعض الجهد العربى الذى أتى من الخلف وخاصة من ليبيا والجزائر، أو تقليل من أهمية التصميم الإستيراتيجى لدى العسكرية المصرية على إستعادة الكبرياء، ولدى المصريين عامة على إستعادة الروح .

- ومعاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية تبدو خبرة مثالية ولكن سلبية للقيادة المصرية. وبغض النظر عن التقييمات متباينة المشارب للمعاهدة نفسها فقد إنبرت سوريا والعراق لمواجهة مصر التى أصرت على فرض أجندتها السلمية المنفردة، وحارت السعودية بين الطرفين فاختل النظام العربى تماما وغزت إسرائيل لبنان مرتين من دون رادع إقليمى، ودخل العراق، بإغواء فرض قيادته على العالم العربى فى غياب مصر، مغامرة الحرب مع إيران فانكشف الأمن الخليجى .

- وتمثل حرب عاصفة الصحراء خبرة ملتبسة، فالغزو العراقى نفسه خبرة سلبية تكشف عن غياب الذكاء التاريخى، وعن محاولة لقلب ترتيب القيادة داخل النظام العربى قادته الى الفوضى. وأما عملية تحرير الكويت فهى خبرة ناجحة جزئيا للمراكز الثلاث الأخرى على صعيدى: توفير الشرعية القومية للحشد الدولى تحت القيادة الأمريكية ضد الغزو، وتقديم الدعم اللوجيستى الذى تطلبته عملية التحرير حيث السيادة الوطنية هى إحدى القيم الأساسية التى يرتكزعليها النظام العربى الرسمى.

- وأما خبرتا حرب الخليج الأولى، والحرب الأهلية اللبنانية فكانتا الأسوأ على هذا الصعيد، ففى الأولى ساعد وقوف سوريا الى جوار إيران على تأكيد شرعية موقفها، داخليا على الأقل، باعتبار أن الخصم يفتقد الى الشرعية العربية نفسها ما مكنها من إطالة الحرب لنحو ثمانى سنوات. وفى الثانية تبادل الطرفان مواقعهما، ودخلت العراق مناوئا للدور السورى التقليدى فى لبنان ما جعل القوى متوازنة، والصراع بين الجانبين أشبه بحرب باردة عربية دامت خمس عشرة عاما ولم تتوقف إلا بعد الحرب العراقية - الإيرانية، ونشاط الدور السعودى فى تسوية الأزمة عبر إتفاق الطائف عام ١٩٨٩ م.

- أما الخبرة الأكثر إيلاما لهذا القرن "الحادى والعشرين" فتتعلق بالعدوان الأمريكى على العراق عام ٢٠٠٣، وهى خبرة بالغة الإستثنائية على صعيد هذا الذكاء لأنها لم تكشف عن تنافس المحور التاريخى العربى على القيادة، بل عن رغبة فى الإستقالة منها والتملص من أعبائها بأشكال شتى من الصمت. فضمن إتجاه خليجى عام يقبل ظاهرا أو باطنا بالعدوان الأمريكى لم تبدى السعودية ممانعة تذكر. أما الطرفان المصرى والسورى فقد بدا موقفهما مهادنا بدرجة أو بأخرى، يدعو الى عدم الإندفاع الى الحل العسكرى ولكنه لا يكشف عن رد فعل معين بذاته تجاه هذا الحل. وهو ما كان يعنى أو يتم تفسيره لدى التحالف الأمريكى - البريطانى بالموافقة الضمنية على الغزو، فماذا تعنى هذه الإستقالة؟.

الأرجح أن إستبداد النظام العراقى ودموية صدام ليسا هما السبب الحقيقى، فالثقافة العربية كانت دوما حبلى بأمثال هذا النظام وقائده، فالأهم ربما تمثل فى أمرين **أولهما**: هو سابقة عدوانه على الكويت التى لم يتقبلها الضمير العربى حتى الآن، فالسابقة الإستثنائية للعراق وهو ثانى أهم الفاعلين فى المحور التاريخى العربى، مهدت الأرض لخبرة إستثنائية فى إستقالة باقى عناصر المحور من محاولة الدفاع عنه. **وثانيهما** هو حالة الإرهاق التى أصابت هذا المحور بعد أن تحول ثانى أكبر أعضائه من رافعة له الى عبء عليه وهذا هو العراق فى مرحلة الحصار طيلة التسعينيات. وكذلك بعد أن زاد تردد العضو الأول فى تحمل مهمته وهو القائد الشرعى الذى يغيب معه حس الإتجاه وتضيع الأهداف وتلك هى مصر. وهنا تحولت المنطقة الى فراغ.

- وفى هذا الفراغ الإستيراتيجى جرت وقائع الخبرة الأخيرة، أعنى الحرب الإسرائيلية على لبنان - والتى كشفت للمرة الأولى عن تباين ظاهر فى الموقف العربى من عدوان إسرائيلى على بلد عربى. لقد كان هناك دوما ذلك التباين التقليدى بين نمطين من الرؤى حول كيفية التعاطى مع التحدى الإسرائيلى، ولكن ليس حول نمط توصيفه أو عمق إدانته. بل أن المنظومة العربية بقيادة المحور الثلاثى "مصر وسوريا والسعودية" كانت قد تمكنت فى العقدين الماضيين من التوافق حول "إستيراتيجية" سلام جسدت حس الإتجاه العام. وبرغم الفشل فى إقرارها، سعى هذا المحور الى حماية صيغها الواهنة

والمتآكلة تدريجيا من السقوط حتى لا تنزلق المنطقة الى حالة فوضى، غير أن هذا التوافق قد تعرض الى تحديين مستجدين دفعا به الى حافة الإنهيار:

التحدى الأول: جسدته حركة حماس منذ نجاحها فى تفجير مفاجأة الفوز بالإنتخابات التشريعية، إذ كان واضحا أنها تراوح بين خيارين يجسد كلا منهما أحد أطراف هذا التوافق؛

الخيار الأول : يمكن تسميته بـ "الخيار المصرى" المدعوم سعوديا وكان يدفع بحماس نحو الإعتدال صوب الإلتزام بموروث أوسلو الشامل على النحو الذى يجعل منها استمرارا لفتح بشكل أو بآخر، ويعمل على إدماجها فى المعادلة الإقليمية بشكلها الراهن. ويأخذ هذا الخيار المرن إتجاهين أساسيين كان إحتمال كلا منهما يتوقف على مدى فعالية الدبلوماسية المصرية والعربية، وعلى مرونة العقل السياسى الإسرائيلى، وكذلك على وعى الإدراة الأمريكية. **أولهما** نحو الخضوع للسقف المنخفض الذى تمكنت السياسة الإسرائيلية فى عهد شارون من أن تفرضه على الجميع بعد أحداث ١١ سبتمبر، والذى كانت الولايات المتحدة قد قبلت به للمطالب الفلسطينية المشروعة منذ حكم اليمين الجمهورى قبل خمس سنوات، أى أنه يقوم على مجرد إستبدال "حماس" بـ "فتح" فى وراثة خريطة الطريق أو ما هو أقل من صيغ الحل أحادى الجانب وهو إتجاه يفقد حماس كل مشروعيتها. **وثانيهما** يرفع هذا السقف قليلا أو كثيرا بما يسمح بالعودة الى دفق سيناريو أوسلو السابق على شارون ويقترب من "إستيراتيجية" السلام العربية القائمة على الدولتين كاملتى السيادة، وعلى الشراكة السياسية بين طرفين متكافئين يتبادلا الإعتراف والحقوق وخصوصا المتعلقة بوضع القدس، واللاجئين، والمستوطنات وتواصل الأراضى الفلسطينية وهو إتجاه يقود الى إنجاح حماس.

أما الخيار الثانى فيمكن تسميته بـ "الخيار السورى " المدعوم من إيران وهى طرف خارج المحور ولكنه بالغ التأثير فى تفاعلاته. هذا الخيار يدفع نظريا بحماس الى التشدد بالخروج على موروث أوسلو كله، وعلى المعادلات الأمريكية الحاكمة لتفاعلات الإقليم. وفى المقابل نمو الإرتباط بين القضية الفلسطينية وبين القضايا الأخرى فى الإقليم مثل الصراع

على حزب الله فى لبنان، والصراع الدائر بين سوريا والولايات المتحدة حول النظام نفسه أو حول سياساته على الأقل، وكذا السجال المكتوم ولكن العميق بين المشروع الأمريكى والمشروع الوطنى للعراق، وحتى الإلتصاق بالقضية الأكثر إشتعالا وهى البرنامج النووى لإيران على نحو يصبح معه السلام مؤجل، والعنف محتمل على الجانبين.

وفيما تراوح حماس بين الخيارين فى الشهور الست الأولى لعام ٢٠٠٦، فرض الخيار المتشدد نفسه وحدثت كل التطورات الأسوأ تقريبا، فقد قامت الولايات المتحدة بتجميد دعمها للسلطة الفلسطينية تماما، وكذلك نهجت أوروبا، كما قامت إسرائيل بوقف تحويلاتها المالية، وإستبدالها بجرعات من العنف العسكرى الشامل الموجة الى الفلسطينيين قتلا وأسرا، مع خطاب سياسى يؤكد على أولوية النهج الشارونى القائم على الحل أحادى الجانب، مع شل حركة الفلسطينيين بالسيطرة على المعابر والموانىء، ما كان يعنى خنق حماس التى ردت بعملية إختطاف الجندى الإسرائيلى "جلعاد" كهروب يائس الى الأمام، وهى العملية التى أدت الى إحتقان مكتوم بين أطراف المحور الثلاثى العربى.

وأما التحدى الثانى: فتمثل فى الهجوم العسكرى الإسرائيلى على لبنان والذى كشف عن سفور حالة الإحتقان هذه حول الدور الذى يلعبه حزب الله فى الحياة اللبنانية، وفى مواجهة إسرائيل، وهو الدور الذى ظل موضع إجماع عربى ولم يثر إنقساما لا شعبيا ولا رسميا مثلما حدث مع الأزمة الراهنة التى أثارت تحفظات رسمية كشفت عنها الإنتقادات المصرية والسعودية لما إعتبرته مغامرة غير محسوبة تورط العالم العربى فيما لم يستشر فيه، وتفتقد للشرعية الداخلية إذ تمت من خلف رأس الحكومة اللبنانية، وهى مواقف بدت أكثر صراحة فى إنتقادها لحزب الله من مواقف الفرقاء اللبنانيين وخاصة قوى ١٤ آذار/ مارس الذين كانوا – وحدهم – قد إنقسموا حول حزب الله وسلاحه منذ إغتيال الرئيس الحريرى، ولكنهم أظهروا خلال الحرب تلاحما وطنيا ملحوظا.

وفى الحقيقة بدت هذه الإنتقادات غير منصفة إذ تجاهلت دافعا مهما لما قام به حزب الله وهو الرد على العدوان الإسرائيلى الوحشى على غزة ومحاولة تخفيف الضغط عن حماس. والأمر هنا ليس غريبا بل يشبه كثيرا ما كانت مصر قد قامت به فى مايو١٩٦٧ من مشاركة فى عملية تصعيد سياسى أعقاب

ما تسرب آنذاك من نية إسرائيل فى الهجوم على سوريا وإعلان مصر أن العدوان على سوريا بمثابة إعتداء عليها نفسها يجعلها طرفا فى الحرب وهو ما كان بالفعل، وكانت هزيمة يونيو التى إنتقدها الجميع لما جسدته من غفلة عسكرية، وليس لما عكسته من يقظة سياسية. فما قام به حزب الله إذن ليس أمرا شاذا بل لعله الأمر الوحيد المستقيم مع جغرافية السياسة وحقائق الهوية، وإن عابه فقط الإختلال المفرط فى التوازن، وهو ما يدفعنا للتوقف عند ظاهرتين معبرتين بل ربما الأكثر تعبيرا عن المشهد السياسى العربى الراهن؛

الظاهرة الأولى تتعلق بعملية الوراثة التى قامت بها "النزعة الإسلامية" وسمها ما شئت "حركات، منظمات، إيديولوجيات" فى ربع القرن الأخير، للفكرة القومية العربية التى حملت عبء النهوض بالعالم العربى والدفاع عنه فى ربع القرن السابق عليه.

والظاهرة الثانية تتعلق بتآكل الإرادة السياسية العربية من فضاء الدول القومية الى فضاء حركات المقاومة، فالروح القومية تتقلص، وفى موازاتها تتقلص القدرة الإستيراتيجية على الحركة، بينما يزحف الضغط الدولى والإقليمى الى خطوط متقدمة وحدود خانقة. فما قامت به إسرائيل فى غزة وفى الجنوب اللبنانى لا يمكن أن يكون مجرد رد فعل على خطف ثلاثة جنود، بل كان قرار حرب شاملة كانت قد إتخذته ضد حزب الله، أو ربما تدشينا لمرحلة جديدة من الممارسة العدمية للقوة التى يحركها الشعور النرجسى بالقدرة اللامحدودة على العدوان. ومن ثم فما قام به حزب الله، وإن لم يكن قانونيا حسب شرعية دولية لم تعد تستحق إسمها، فإنه يبقى دفاعيا "من المنظور القومى" وشرعيا "فرض كفاية" عن الأمة كلها وما كان واجبا إدانته علنيا وهو تحت السلاح. ذلك أن بعض اللحظات التاريخية قد تمنح قوة ما أو حركة بعينها دورا يفوق كثيرا حجمها إذ تصير رمزا لمعنى خاص أو معلم على مرحلة بذاتها لدى جماعة إنسانية ما. وفى العقدين الأخيرين، إنتزع حزب الله دورا يفوق حجمه فى الصراع مع إسرائيل فاحتل مكانة غالية فى وجدان الشعوب العربية التى سئمت من طول الإنكسار وحرمت من أن تقول للمعتدى الغاشم "لا" بأية طريقة مهما كانت خجولة أو عاقلة.

وحسب هذا الفهم لم يكن مجديا رؤية الأزمة من زاوية بالغة الضيق، والإكتفاء فى التفاعل معها بمجرد التنديد بالدور الإيرانى فيها. ذلك أن أزمة العالم العربى الكبرى تكمن الآن فى عجزه عن المناورة السياسية إزاء إيران وإسرائيل وتحوله الى مجال حيوى لصراعاتهما، إذ يتعامل بشدة غير مبررة مع إيران لدرجة التجاهل، ومرونة زائدة مع إسرائيل لدرجة الخنوع. وفيما تبدو سوريا ومن خلفها إيران مندفعتين أكثر من اللازم نحو التصعيد، فإن مصر والسعودية تبدوان حذرتين أكثر من اللازم وهو وضع من طبيعته ان يقود الى تصارع بين الجانبين لا يعدو هذين التحديين كونهما نتاجا له، فإذا كانت أزمة حزب الله هى نتيجة لإندفاع إيران وسوريا، فإن أزمة حماس هى بالقدر نفسه نتاج لتردد مصر والسعودية وعجز الدبلوماسية المفرطة فى الهدوء عن إيجاد أى مخرج إنسانى من دائرة العذابات التى تجرى للفلسطينيين. ولا شك أن هذه الأخيرة هى السبب المباشر للأولى لأنه كان متعذرا أن يلوذ الجميع بالصمت المريب إزاء ما يجرى فى فلسطين إلا إذا إعتبرنا أن حالات القتل الواسعة واليومية للأرواح والهجوم المدمر للبنى التحتية هناك وضعا مرغوبا فيه يستحق الدفاع عنه، أو أن الجميع قد قرروا التخلى عن الفلسطينيين نظريا وعمليا، وهنا يتوجب عليهم أن يعلنوا ذلك لأن له حديث آخر ينتهى مع كل أمل فى تكريس "عقلانيتنا التاريخية" وكل ممكنات ملء الفراغ المحيط بنا.

ومن ثم فان إستعادة الذكاء التاريخى العربى يبقى الطريقة الوحيدة الممكنة الآن لملء الفراغ الإستيراتيجى المحيط بنا، ما يعنى أن المهمة العربية الأكثر إلحاحا هى إستعادة الرغبة والإنسجام والتوافق بين أعضاء هذا المحور ليبدأ فى العمل حالا ومن دون إنتظار تحقيق الإجماع الشكلى الهش لأعضاء النظام الرسمى الإثنتين والعشرين دولة بما لهم من أوزان متباينة وأمزجة متناقضة، إذ لا يوجد فى الحقيقة فارق كبير بين الإجماع الرسمى، وبين التوافق الرباعى فى القدرة على تجسيد حس الإتجاه لدى الجماعة العربية. وربما يضيق هذا الفارق مقتربا من حد التلاشى مع بناء نسق قيمى سياسى بالغ الإعتدال والعقلانية يمكن من خلاله التعاطى مع كافة القضايا العربية المتفجرة فى الداخل وذلك بعدم السماح للمصالح المباشرة الدولتية أو الطائفية بالنفاذ الى هذا النسق وضربه فى الصميم لأجل مصلحة آنية مباشرة لأحد من أعضائه. وأيضا القضايا المعلقة مع

الخارج وذلك بالتخلى عن نوعين من المواقف قادا الى الفشل فى إدارة الصراعات العربية رغم تناقضهما ظاهريا.

النوع الأول هو الصياغات الراديكالية فى ثوريتها والتى سادت لعقود أربع بدأت مع إنتصاف القرن الماضى طالما حفلت بها الأجندة البعثية ومثيلاتها من رؤى لا تعير أى إهتمام للمتغيرات الجارية فى عالمنا، والحدود الحاكمة للتأثير العربى فى العصر الحديث الذى إحتلت فيه الجماعة العربية موقع المعارضة بالمعنى الحضارى، لا موقع السلطة الذى إحتلته فى ذروة العصر الوسيط.

وأما **النوع الثانى** فهو الصياغات المبالغة فى محافظتها إذ تضع المتغيرات العالمية فى مرتبة القدر الذى لا ترد إرادته، والتى إستوحت فى العقدين الماضيين نموذج السلطة الرعوية الأكثر خنوعا والذى ساد المجتمعات العربية إبان الحكم المملوكى ثم العثمانى. فإذا كانت الصياغة الأولى صارت تثير السخرية لعدم عقلانيتها، فالثانية لم تعد تثير الحماسه لإنتفاء إيجابيتها.

ثانيا: نحو صياغة جديدة للمجال العربى - الإيرانى!

ثمة مشترك دينى/ ثقافى، وجغرافى/ إستيراتيجى يجمع بين العرب وإيران على نحو لا يجعل العرب خصما من رصيد إيران، أو إيران خصما من رصيد العرب، وإذا حدث ذلك فالدافع إليه ليس إلا نوعا من العماء الإستيراتيجى لدى أحد الطرفين أو كليهما وقوعا فى أسر ذاكرة تاريخية يشوهها هاجسان متقادمان:

- **أولهما** يعود الى "الحركات الشعوبية" التى يزخر بها التاريخ الإسلامى حيث تنامى الدور الفارسى فى التنافسات السياسية التى دارت بين الأجناس المتزايدة بامتداد خريطة الإسلام ضد إنفرادية العنصر العربى بالسلطة المركزية فى العصر الأموى، كما أسهم بدور أساسى فى إنتقالها الى الدولة العباسية، بعد أن كان قد أضفى عليها مسحة من التقليد الفارسى الملكى الإستبدادى. وكذلك فى الصراع الثقافى الذى دار بين الروح العربية الأولى الفطرية والنصية، وبين الروح الجديدة الأكثر تركيبا وتأثرا بحركة الترجمة والإنفتاح على الثقافات الأخرى المعاصرة بعد عصر المأمون العباسى، ما ولد تيار من السجالات الكلامية وكرس لتعددية الفرق الإسلامية التى تنامى عددها رويد رويدا ومنها الفرق الشيعية، والتى تم توظيفها مع غيرها فى الصراعات السياسة فى كثير من الأحوال، وخاصة منذ عهد المعتصم.

- **وثانيهما** ينبع من بعض الخبرات الصراعية التى تفجرت الحقبة المعاصرة سواء مع إيران "الدولة القومية" على منوال سيطرتها على الجزر الإماراتية الثلاث منذ إنسحاب القوات البريطانية بداية السبعينيات، ومطالباتها فى البحرين آنذاك، والخلاف مع العراق حول شط العرب وصولا الى حرب السنوات الثمانى التى شنها صدام حسين مدفوعا بأوهام الهيمنة الإقليمية.

١- العرب وإيران كروما واليونان .. تشابك حضارى

غير أن هذه الخبرات جميعا لا تدل فى الحقيقة على تناقض حتمى بين مصائر الطرفين، بقدر ما تدل على القرابة الحضارية مجسدة فى "الجوار الجغرافى" و"التداخل التاريخى" على منوال الخلافات الحدودية بين أغلب دول المغرب العربى، وكذا المشرق العربى، بل وداخل مجلس التعاون الخليجى نفسه، أو بين دوله وبين اليمن فضلا عن العراق ما قاد الى غزو الكويت. ولذا فهى

صراعات قابلة دوما للحل بالحوار المباشر لأنها غير جذرية ولا تجرح كرامة شعوبها حيث يغيب العداء الدينى أو التناقض الحضارى الذى يغذى الشعور المرير بـ "الهزيمة".

وأما إيران "الجمهورية الإسلامية" فتبقى شريكا حضاريا بامتياز رغم بعض الحساسيات التى أثارها مفهوم تصدير الثورة، والذى لا يعمل أصلا إلا فى إطار تلك القرابة الحضارية، حيث الثقافة الغالبة علي إيران تنبع من مصادر إلهام عربية فى الحقيقة، فالمذهب الشيعى الجعفرى الإثنى عشرى الرسمى والغالب عليها – كان الأزهر قد إعترف به مذهبا فقهيا خامسا فى الإسلام بجانب المذاهب السنية الأربع فى عهد شيخه الكبير محمود شلتوت فى خمسينيات القرن العشرين – يرجع بكل رموزه الى العنصر العربى من البيت الهاشمى القرشى. وحتى أغلب مزاراتهم المقدسة تقع إما فى مكة والمدينة حيث الحرمين الشريفين، وإما فى العراق حيث مراقد سبعة أئمة من الإثنى عشر تقع بمدينتى النجف وكربلاء. كما أن إيران هى البلد الوحيد الذى جعل اللغة العربية هى اللغة الثانية فى مراحل التعليم المختلفة بنص دستورى صريح منذ قيام الثورة. ومن ثم فإيران التى ينظر اليها على أنها مركز الثقل السياسى الشيعى كدولة، ليست هى القبلة الروحية للشيعة كمذهب، فهذه القبلة تبقى فى العراق، والجغرافيا العربية.

وتتعمق تلك القرابة بالتشابك الجغرافى والتداخل الديمغرافى المشهودين، فإذا كان فى العالم العربى شيعة متعاطفون معها مذهبيا، فهناك أيضا عدة ملايين من العرب يعيشون داخلها فى إقليم "عربستان" أو "خوزستان ". كما أن الأكراد وجودا وقضية يمثلون هاجس المنطقة كلها بما فيها إيران وتركيا وكذلك العراق وسوريا، فالقضايا الأساسية والحساسة فى المنطقة تبدو جامعة للعرب وإيران ما يجعلها قطعة من نسيج المنطقة بامتياز الآن وفى المستقبل.

هذا الإطار الحضارى الجامع يجعل العلاقة بين إيران مهما تزايدت قوتها، وبين العالم العربى حتى فى أشد لحظات ضعفه، تبقى أشبه بعلاقة حبل سرى على منوال تلك القائمة بين الولايات المتحدة كتجسيد لقوة الغرب العسكرية والإستيراتيجية، وبين أوربا الغربية مصدر القيم والرموز والأفكار التى صاغت القوة الأمريكية بقدر ما ألهمت العقل الأمريكى. أو على منوال العلاقة بين

روما تلك الإمبراطورية السياسية والعسكرية المتمددة، وأثينا تلك المدرسة الفكرية والفلسفية الملهمة. فإذا كانت إيران فعليا ليست إلا قوة من الحجم المتوسط، الذى يزخر العالم العربى بثلاثة نماذج له على الأقل، يصبح الأفق مفتوحا على شراكة إستيراتيجة / حضارية مؤكدة، لا مكان فيها لعداء مطلق رغم بعض التباين فى المصالح، إن لم تكن صداقة مطلقة يحتمها التجانس فى الثقافة.

وتحتم اللحظة الراهنة ضرورة الإصغاء لمنطق التجانس، وتهميش هواجس التباين لما تزخر به من تحديات مشتركة وجذرية يواجهها الطرفان معا بفعل التحالف الصهيوني المسيحى المحافظ ضد المنطقة برمتها، إذ بينما ايران مستهدفة لمشروعها النووى الذى يصعب على الولايات المتحدة وإسرائيل التسليم به حتى لا تتهدد إستثنائية اسرائيل، ولنظامها السياسى الذى يبدو فعالا من خارج إطار الوصاية الأمريكية، فإن العالم العربى مستهدف لعملية تطويع كبرى وشاملة تمتد من السيطرة على العراق ربع الكتلة العربية، مرورا بفرض سلام الأمر الواقع على الفلسطينيين، وحتى إجتثاث كل رموز وشواهد عصر التحرر القومى العربى.

ولاشك أن غياب طرف إسناد دولى يمكن الإستعانة به، إنما يفرض على الطرفين إنضاج معطيات هذه الشراكة، بتجاوز الحساسيات القائمة بينهما والدخول فى حوار جاد ومثمر. وهو لن يكون جادا إلا إذا اعترف العرب بإيران كدولة كبيرة وكتلة حيوية معتبرة لها مصالح يجب أن تحترم، وتفاعلوا معها مباشرة بجسارة واستقلال عن الأجندة الأمريكية. كما لن يكون مثمرا إلا إذا استعاد العرب ثقتهم بأنفسهم كأنداد لإيران على الأقل، وكقلب تاريخى لاغنى عنه فى تشكيل إستيراتيجيات الشرق الأوسط، وقيادة التطور الحضارى لعالم الإسلام الواسع بكل حيويته وديناميكيته.

غير ان تلك الشراكة بدورها ضد الخطر الخارجى لن تكون ممكنة من دون ضمان أولى لأمن الخليج العربى ضد خطر الهيمنة الإيرانية. وربما كانت الصيغة التى تلبى المطلبين معا بمثابة طبعة منقحة من إعلان دمشق الذى كان قد تأسس أعقاب عاصفة الصحراء لموازنة نفوذ عراق مهزوم، وإيران طامحة،

ولكنه تجمد بفعل الوجود الأمريكى المكثف، وإستيراتيجية "الإحتواء المزدوج" للطرفين .

وإذا كان التحدى قد إختلف الآن، فلم يعد يكمن فى صراع إقليمى بين العراق وإيران، بل فى وجود أمريكى ينزع الى إستيراتيجية "الإبتلاع المزدوج" للدولتين، فإن صيغة الإعلان الأولى "٢+٢ " تصبح عاجزة عن العمل ولابد من تعديلها الى "٦ +٤" بضم العراق وإيران إليها لتعمل ليس كصيغة أمنية محدودة، بل كإطار لشراكة سياسية وإستيراتيجية متكاملة.

٢- العرب وإيران ضد الصهيو - مسيحية.. توافق موضوعى

تحدث خبراء عرب كثر، قبل العاصفة اللبنانية وبعدها، عن صراع بين مشروع أمريكى وآخر إيرانى على مقادير المنطقة مع غياب أى تصور عربى لمستقبلها. وأظن ذلك صحيحا فى المجمل وغير دقيق تفصيلا، فالولايات المتحدة بحكم دورها وحجمها ليست فى موقع تناقض جذرى أو جوهرى مع العالم العربى حسب المنطق الإستيراتيجى الصحيح الذى تصوغه ثوابت تكوينية كالجغرافيا والتاريخ والثقافة ما يعنى أن التوافق بين الجانبين أمر ممكن بل طبيعى، وأن التناقض الظاهر بينهما صنيعة وعى مزيف مثقل بأوهام السيطرة الإمبراطورية فرضه اليمين المحافظ، الذى تمكن من أخضاع العقل الأمريكى الجمعى لأسوأ المؤثرات الإسرائيلية. فالصراع الجوهرى إذن يدور بين إسرائيل التى تخاطب العقل الأمريكى من داخله لإقناعه بالتعامل مع المنطقة عبر منهجها العدوانى سواء لدافع نفسى يتعلق بعقدتها الوجودية المستحكمة، أو لدافع إستيراتيجى يعنى بتحقيق أكبر عائد ممكن لتحالفها مع الولايات المتحدة، أو كليهما. وبين إيران التى تخاطب العقل الأمريكى أيضا ولكن من خارجه، لإقناعه/ إرغامه بالسماح/ التسليم لها بالعمل كقطب إستيراتيجى فعال فى إدارة المنطقة بما يعظم من مصالحها ومكانتها.

ويستند الجانبان، الإسرائيلى والإيرانى، الى حالة الركود التى تعيشها المنطقة منذ تخلت مصر عن قيادتها حضاريا نهاية السبعينيات، قبل أن تفقد حس الإتجاه الإستيراتيجى بفعل العدوان العراقى على الكويت بداية التسعينيات، والى أن تحولت الى فراغ إستيراتيجى كامل بعد إحتلال بغداد قبل ثلاث سنوات.

ويفترضان أن الوضع العربى سوف يظل كذلك فى على المدى الذى يسمح لكليهما بإنجاز مشروعه الخاص، وهذا الإفتراض بالضبط هو ما ندعو الى تحديه وإفشاله. ولا شك عندى فى قدرة العالم العربى على الإفشال لأنه يجيد الممانعة وممارسة تكتيكات الإبطاء والدفاع السلبى عن النفس، ولكن الإستجابة العميقة للتحدى تقتضى إجادة تكتيكات أخرى تبدأ بالدفاع الإيجابى، مرورا بالهجوم البناء، وصولا الى المبادرة الخلاقة لإعادة تأسيس الواقع التاريخى.

ولعل نقطة البداية الصحيحة لهذا الدفاع الإيجابى والتى يمكن تطويرها تلقائيا الى هجوم بناء، هى التصالح مع المشروع الإيرانى، والضرب على المشروع الإسرائيلى بشدة تكفى لإفشاله نهائيا، كمقدمة للخروج من المأزق الشامل نحو إعادة إمتلاك المصير.

وتنبع مشروعية هذا الفهم من دواعى شتى يأتى على رأسها الأعراض الجانبية للصدام مع المشروع الإيرانى، لأنه ينبع من المنطقة نفسها ويحوز وسائلها ويتحدث لغتها، ولذا فسوف يثير لسنوات عدة إستقطابا فى الساحة العربية بين تيار عام عقلانى وإن بقى "محافظا"، وتيار ممانعة "راديكالى" وإن ظل هامشيا، والأغلب أنه سوف يتآكل فى النهاية كما تآكلت "جبهة الصمود والتصدى"، غير أنه سيبقى خصما من الزمن العربى المتمدد حينئذ فى شبه حرب باردة إقليمية، لها إستقطاباتاتها المتعددة على نحو يؤجل كل صياغة حضارية للمستقبل، وكل صياغة إستيراتيجية للفراغ العربى متزايد الإتساع.

ويأتى ضمنها أن المشروع الإيرانى يسمح بإطلاق أدوار عربية خلاقة للجدل معه، إذ ينطلق من شراكة حضارية مع العالم العربى تبتغى إيران نصيبا أكبر فى قيادتها نحو ملء الفراغ الإستيراتيجى بالمنطقة التى يمكن تسميتها بـ "المشرق العربى الإسلامى" بعكس المشروع الإسرائيلى الذى يطمح الى قمع كل دور عربى ممكن فى إعادة صياغة المنطقة لأنه ينطلق من تناقض جذرى معها، ويسعى الى طمس "الشخصية الحضارية المستقلة" للـ "الكتلة التاريخية العربية" بإحالتها الى مجرد كيانات فى "الشرق الأوسط":

- فبينما ترتكز إسرائيل على الغرب كرصيد حضارى مفتعل، وسياسى مؤكد، وتندرج فى إستيراتيجيات عابرة للإقليم تمت بكل الصلة لنزعات الهيمنة الأمريكية، وتثبت فشلها فى كل إختبار عربى للتعايش مع المنطقة، فإن إيران

لا ترتبط بمشاريع هيمنة عالمية، ولا تعدو باحثة عن مجال أرحب للقيادة الإقليمية، وهى تستحقه إذا ما تخلت عن مفهوم تصدير الثورة وهو ما نظن أن إيران قد تجاوزته عملياً. أو على الأقل لم يثبت فشلها المؤكد فى تجاوزه، لأن العالم العربى الذى دخل مع إسرائيل فى حوار طويل لم يسفر إلا عن "قانا ١"، و"قانا٢"، لم يكلف نفسه أبداً فتح حوار جاد و"علنى" مع إيران، مكتفياً باتهامها عن بعد بالمسئولية عن عدم إستقرار المنطقة لأنها أحيانا ذات مشروع إسلامي ثورى، وأحيانا أخرى ذات مشروع قومى فارسى، من دون ضبط للمصطلح أو تدقيق للتاريخ.

– وبينما سعت إيران ،ولا تزال، إلى كسب الدول العربية الكبرى وعلى رأسها مصر والسعودية، وتدخل فى تحالف ملموس مع سوريا، فإن إسرائيل لم تعد تكترث بدول المنطقة الكبرى، ولا تزال ترى فى مصر، حسبما قال فرويد[١] يوماً، "عقدة وجودها فى الواقع ودليل ضآلتها فى التاريخ" ما يجعل الخلاف بينهما على قيادة المنطقة خلافاً وجوديا فى الحقيقة لا يخفيه مؤقتاً سوى تجميد مصر لدورها وحصره فى العقد قبل الأخير فى مجرد الوساطة بين العرب وإسرائيل، وهو ما تقلص فى النصف الأول من العقد الحالى الى الوساطة بين الفلسطينيين وإسرائيل، ثم فى السنوات الثلاث الأخيرة الى مجرد الوساطة بين الفصائل الفلسطينية نفسها، وهو دور صغير وثانوى لم يكن أبدا هو دورها أو قدرها، ولا شك عندى فى سفور هذا الخلاف وبأكثر درجات الحدة بمجرد أن تعود مصر الى ممارسة دورها فى إعادة صياغة المجال العربى من حولها.

– وبينما تمتلك إسرائيل سلاحاً نووياً متقدماً يدفعها الى العربدة الإقليمية ويمنحها صك أمان نهائي ضد ردات فعل ضحاياها لم يبذل العالم العربى جهداً يذكر لنزعه منها بغض النظر عن إستحالة ذلك واقعيا، فإنهم يبدون معارضة خفية وظاهرة لبرنامج إيران النووى الذى يبدو حتى الآن سلمياً، وحتى إذا ما صار عسكرياً فمن المستحيل إستخدامه ضد جوارها العربى الذى يزخر بالعنصر الشيعى المفترض ولائه لها حسبما يدعى مناقضوها، والمؤكد قرابته الدينية والحضارية لها حسبما تشى معطياتها.

[١] – سيجموند فرويد، النبى موسى: الإنسان وديانة التوحيد، ترجمة د. عبد المنعم الحنفى، دار الشعاع للنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥ .

هذه الدواعى جميعا تفضح عجز العالم العربى عن المناورة الخلاقة بين الطموح الإيرانى الأكثر مشروعية، والإسرائيلى الأكثر عدائية، إذ يميل الى التعامل بشدة غير مبررة مع إيران لدرجة التجاهل، ومرونة زائدة مع إسرائيل لدرجة الخنوع. كما تكشف عن أن هذا الميل لا ينبع من مساحة أو عمق التناقض الحقيقى مع كلتيهما، وإنما من حاجة النظم الحاكمة الى الحفاظ على الأمر الواقع، والإحجام عن بذل أى جهد سياسى لاستثمار الفرص ودرء المخاطر.

فى هذا السياق تكمن ميزة إسرائيل الحاسمة فى وجود إطار يُسمى بعملية التسوية وهو إطار معقد صار مُستهلكاً وبالياً وربما مذلا، إلا أنه يبقى قابلاً لأن يُحال إليه وعليه سلوكيات تبدو فى الظاهر سياسية تنزع الى تحقيق "السلام" وهى فى الحقيقة لا تعبر إلا عن "غياب السياسة". ويضيف إلى هذه الميزة الإسرائيلية كون إطارها المحيط مشمولا بالرعاية الأمريكية حتى صار أقرب إلى محطة يتم خلالها عملية "غسيل للسياسات الداخلية" لدى دول المنطقة، فكل ما تختلف عليه مع الولايات المتحدة يمكن مبادلته بقبول أوسع للتصور الإسرائيلى، وكلما زادت التهديدات الإسرائيلية كلما زادت المناشدات والتنازلات الى الولايات المتحدة، وتكون النتيجة النهائية خصما مزدوجا من الأرصدة السياسية، ونزيفا مستمرا للكتلة الحضارية العربية بما يؤدى الى ذبولها ثم تشققها أمام تيارات الإرهاب العدمى التى تجد فى هذا الفراغ أفضل بيئة للنمو وأكبر مجال للتمدد.

وفى المقابل لا تمتلك إيران مثل هذا الإطار، فقد خرجت الثورة الإسلامية مباشرة الى حرب السنوات الثمانى التى شنها صدام حسين بإغواء من الغرب أو من شيطان الإستبداد، ثم خرجت المنطقة كلها الى حرب عاصفة الصحراء فى ظل تحالف أمريكى ــ عربى "إستثنائى"، وذلك فى مقابل إطار "إستثنائى" للتسوية السلمية بين العرب وإسرائيل بدأ بمدريد وإنتهى بـ "قانا٢" وقد ظلت إيران على مسافة منه. وفى هذه المراحل جميعها لم يُتح للطرفين العربى والإيرانى شق قناة جادة للحوار المباشر، فدار الحوار عبر الإعلام ومن خلال الصور النمطية الغربية التى غذت الهواجس والشكوك العربية إزاء إيران.

وعلى العكس من إسرائيل، لا يحظى التفاعل مع ايران بضمانة أمريكية، بل أنه محاط بصاعق سياسى لا يكاد أحد يقربه إلا وأصابه من الكوارث بقدر جرأته أو غفلته ! والى الدرجة التى لم يطرح معها هذا السؤال الجاد: إذا كانت إيران حاضرة واقعيا فى شتى القضايا العربية الملتهبة على النحو الذى يدعيه الجميع عليها، فلماذا لا يتم الحوار معها وصولا الى توافق عقلانى حول تلك القضايا ووضع سقوف ممكنة يمكن الدفاع المشترك عنها، حتى لا تبقى إيران مثل "الفاعل الشبح" تطرح تأثيراتها من داخل فضاء مظلم، ما يمنحها فرصة التأثير، ويعفيها من عبء الحساب؟.

هذا التوافق العقلانى إذ يتطلب قدرا كبيرا من المرونة الإستيراتيجية، إنما يقتضى إرساء الحوار العربى – الإيرانى على قاعدة ديمقراطية جوهرها دعم إيران للخيارات الإقليمية التى يتوافق العرب حولها ويرونها صالحة لهم وليس ما تتصوره هى واجبا عليهم، وفى المقابل على العرب ان يكونوا بمثابة الجسر بينها وبين الغرب تكريسا لخيارات عقلانية تقوم على الحوار والحلول السلمية وعلى حفظ حقوقها العادلة فى إمتلاك التكنولوجية النووية، أو على الحياد الإيجابى إذا ما إختارت هى المواجهة مع الولايات المتحدة فلا يسمحوا لأحد بالهجوم عليها من الأرض العربية أو الزج بهم دعائيا وسياسيا فى مخطط لحصارها والضغط عليها.

وفى المقابل على إيران أن تتحدث بلغة واضحة مستقيمة، وأن تقدم ما يثبت للعرب من غير حلفائها"سوريا وحزب الله وحماس" أنها تقف معهم فى الخندق نفسه، وأنها لا تأخذ هؤلاء الحلفاء كرهينة لديها أو تسعى لتوظيفهم ضد المصالح العربية، وأن تقدم لمحيطها الخليجى بالذات من الضمانات ما يكفى لطمأنته، ولدولة الإمارات العربية تحديدا من التعهدات ما يضمن لها إخضاع قضية الجزر الثلاث للتحكيم الدولى، ناهيك عن إحترام الرؤية العربية لمستقبل العراق الموحد وللدور السنى فيه.

وفى هذا السياق يتوجب على سوريا أن لا تجعل من نفسها مخلب قط إيرانى فى الساحة العربية وخاصة فى لبنان، بل جسرا بين الطرفين تحقيقا للتوافق العقلانى المنشود، وحماية للمنطقة من الفوضى. ذلك أن الفوران السياسى الناجم عن العاصفة اللبنانية يبقى الأفق مفتوحا على كل الإحتمالات، وحيث

السجال يزداد إشتعالا داخل إسرائيل بين قراءتين متناقضتين للواقع والمستقبل معا:

القراءة الأولى ترى الحل فى تسريع خطى التسوية السلمية بإستنتاج أن العاصفة اللبنانية جاءت كنتيجة للإبطاء فيها، وهذه القراءة تقود الى الحوار مع سوريا، وإن بقى الأمر رهنا بالفصول القادمة من المنازلة النووية بين أمريكا وإيران، فقد تلجأ الولايات المتحدة لهذا الحوار لعزل سوريا والإستفراد بإيران قبل مواجهتها، وقد تنتهى المنازلة بصفقة مع إيران تقود الى التشدد الإسرائيلى مع سوريا، وأتصور أن التصالح العربى – الإيرانى عبر الجسر السورى هو الضمانة الأكيدة لعدم عزل أيا من البلدين وتجميد سيناريو الفوضى الإسرائيلى/ الأمريكى.

والقراءة الثانية ترى الحل فى مزيد من إعمال القوة بإستنتاج أن ما جرى فى لبنان يرجع الى تهاون إسرائيل فى إستخدام القوة مع حزب الله ! وهو خيار قد تلجأ اليه الحكومة الحالية هروبا الى الأمام بمزيد من التورط العسكرى لإقناع الرأى العام الإسرائيلى بجدارتها، أو الحكومة القادمة، وهى غالبا أكثر يمينية وتشددا، إثباتا لحزمها وقدراتها.

وفى كلا الحالين، لا سبيل أمام سوريا إلا العودة للإلتحام بالكتلة العربية وعدم التعويل فقط على تجربة "المقاومة الوطنية اللبنانية الباسلة والمشروعة" التى إستطاعت فعلا جرح كبرياء إسرائيل وكشف قصوراتها وتعطيل مشروعها، ولكنها بالقطع لا تكفى للتحرك الى الأمام، فإذا كان من العبث التقليل من التجربة الفذة لحزب الله، فمن الخطر التعويل عليها وحدها فى صنع المستقبل، الذى لاتستطيع صياغته سوى القدرات الكبيرة، والإرادات النافذة حتى لا تبقى الجغرافيا العربية رهينة فراغ، والمصير العربى أسير فرقاء.

٣- العرب وإيران والمشكل النووى .. تحالف إستيراتيجى

وظنى ان العراك النووى الأمريكى – الإيرانى يصلح مدخلا إلى إعادة تأكيد الدور العربى فى المنطقة، والى صياغة جديدة بناءة للعلاقات العربية – الإيرانية. فالغاية القصوى لإيران من القدرة النووية هو الإعتراف بها كقوة كبيرة لها دورها فى الخليج والعراق تحديدا.

فالعراق إذن فى قلب العراك النووى، ومن أجل إستعادته، وتجنيب المنطقة حربا عدمية، وإعادة بناء الدور الإستيراتيجى العربى فى الشرق الأوسط يتوجب علينا الدخول الى ساحة هذا العراك برؤية واعية وإرادة مستقلة للتأثير فى توجهاته المستقبلية والتى تتمحور حول سيناريوهات ثلاث أساسية:

السيناريو الأول: هو قيام الولايات المتحدة بتوجيه ضربة عسكرية الى إيران وإشعال حرب يصعب تعيين مدى حدتها وسخونتها، ولكن المؤكد أن جزءا معتبرا منها سوف يدور على الأرض العربية حيث توجد لإيران تحالفات طائفية وإستيراتيجية تكاد تشكل هلالا محيطا يمتد من سوريا وحتى لبنان وفلسطين، وجميعها تحوى بؤر ملتهبة لن تبقى بعيدة عن أى صراع قادم مع الولايات المتحدة. ومع إفتراض منتهى الحكمة لدى المتحكمين فى هذه البؤر بما لا يجعلها مسرحا أصيلا للحرب، يمكن تصور ألسنة لهب تنال منها بشدة. وأما العراق الذى يستضيف على أرضه نحو ١٥٠ ألف جندى أمريكى وبريطانى فلا يمكن تصور بقائه بعيدا عن ساحة الحرب، فهؤلاء الجنود بعتادهم إما رأس رمح القوة الأمريكية فى هجوم ناجح على إيران، وإما رهينة لأعمال فدائية وإنتحارية يقوم بها إما إيرانيون يتم إعدادهم لذلك قيل أن عددهم نحو ٥٥ ألفا، وإما شيعة عراقيون متعاطفون.

وسواء دارت هذه المنازلة عبر الأسلحة التقليدية أو إستخدمت فيها الولايات المتحدة أسلحة نووية تكتيكية. وسواء تمكنت من توجيه ضربات مباشرة للمواقع النووية الإيرانية بحيث تدمرها تماما أو جزئيا بما يتضمنه ذلك من إحتمالات التسرب الإشعاعى أو التلوث البيئى، أو قامت بشن هجوم واسع على أهداف إيرانية متعددة ومنتشرة وملاصقة للجوار العربى. وسواء قامت ايران بالرد من خلال ضربات مركزة على القوات الأمريكية المهاجمة، أو بشن هجوم صاروخى واسع على كل القواعد العسكرية أو الأهداف والمصالح الأمريكية فى المنطقة. وسواء قامت بضرب إسرائيل لتحقيق أهداف نفسية أو لم تفعل. وسواء ردت إسرائيل على الهجوم الإيرانى أو أخذت زمام المبادرة وشاركت فى الهجوم من البداية. ففى كل هذه الحالات أو بعضها، سوف تكون الأرض العربية فى أغلب دول الخليج مسرحا لحرب عبثية يتحمل العرب وزرها من دون أى مكاسب حقيقية، ولهذا يبقى هذا السيناريو هو الأسوأ.

أما السيناريو الثانى : فهو عقد صفقة بين الولايات المتحدة وإيران – ثار ولا زال يثور حولها الجدل – تقوم الأخيرة بمقتضاها بالتوقف عن تخصيب اليورانيوم تماما أو لمدة محددة، مع تقديم ضمانات للوكالة الدولية والولايات المتحدة على السواء تكون رادعة ومانعة لأى إنحراف نحو أهداف عسكرية بما يجعله غير ذى قيمة، أى تجميده بطريقة مشرفة.

وفى المقابل تحصل إيران على إعتراف نهائى بنظامها السياسى، وتطبيعا كاملا للعلاقات الدبلومسية مع الولايات المتحدة، وعلى دور متزايد فى الخليج العربى يمنحها حق الحضور الواسع على ضفتيه ويمكنها من تقاسم النفوذ فى العراق حيث تسعى الولايات المتحدة لإقامة أكبر قاعدة عسكرية، وبعثة دبلوماسية وتحتاج الى أجواء هادئه تضمنها ترتيبات مع إيران.

غير أن هذا السيناريو يبقى صعب نظريا، رغم دوافعه العملية، لأنه يفترض تحول إيديولوجى كبير للنظام فى إيران قد يفقده مبرر وجوده من الأصل وخصوصا بعد ان التف الشعب الإيرانى حول المشروع النووى الذى صار عنوانا على كبريائه السياسى، وعلماً على استقلاله القومى. كما أنه يبقى الأسوأ من وجهة النظر العربية على المدى البعيد لا القريب لأنه يتأسس على قاعدة شراكة أمريكية – إيرانية طويلة نسبيا فى إقتسام النفوذ والمصالح على حساب العالم العربى، كما يغير هيكليا من العلاقات الإيرانية – الإسرائيلية، وهو ما لانتوقعه على وجه العموم.

أما السيناريو الثالث : فهو نجاح إيران فى تحدى الولايات المتحدة والإفلات بالغنيمة النووية ولو عانت فى ذلك من بعض العقوبات الإقتصادية التى يمكن تحملها، أو من زيادة حدة الحصار السياسى المضروب حولها وخاصة من دول الترويكا الأوروبية التى تتفاوض معها نيابة عن الولايات المتحدة وهو أمر لن يكون مؤثرا بدرجة كبيرة لأن إيران تعودت على هذه الحالة منذ الثمانيات. هذا السيناريو هو الأكثر رجحانا لدوافع عدة أهمها ثلاث أساسية:

الدافع الأول: هو مشروعية الموقف الإيرانى على أكثر من صعيد، فقانونيا تتبدى مشروعية موقفها حسب نصوص معاهدة حظر الإنتشار نفسها والتى تضمن لأطرافها، حسب نصوص الفقرتين الثانية والرابعة، إمتلاك التكنولوجيا النووية السلمية. وسياسيا فإن إيران ليست دولة معتدية على

جيرانها كالعراق على نحو يجعلها مكروهة بشكل مطلق، ونظامها السياسى ليس عبثيا كصدام حسين بل ويعترف له منظرون أمريكيون كبار بهامش ديمقراطى مثل "برجنسكى"[1] ويعتبره بعض آخر نموذجا للثورة الدينية ويشابه بين الخمينى ونابليون بونابرت مثل فريد هاليداى"[2].

والدافع الثانى: هو إصرار إيران الواضح علي خيارها وقدرتها على الإضرار الواسع بالمصالح الأمريكية والإقتصاد العالمى وهو أمر لا يستطيع العقل الأمريكى البراجماتى أن يتحمله ما قد يدفعه للقبول فى النهاية بـ "إيران نووية" وإن بشروط معينة يمكن لإيران قبولها وأيضا تحملها. خصوصا وأن هذا الإحتمال كان قائما منذ عشر سنوات لدى منظر عضوى كصامويل هانتنجتون إذ يجادل فى كتابه الأشهر عن "صدام الحضارات" بأن وجود خيار نووى إيرانى موازن للسلاح النووى الإسرائيلى، على منوال التوازن القائم بين الهند وباكستان، يبدو أمرا محتملا فى ضوء سعى إيران الى تكريس نفسها دولة مركز فى العالم الإسلامى.

ويدعم هذا الإتجاة نتائج الحرب الإسرائيلية على لبنان والتى وشت بأن اشعال حرب ضد إيران لن يكون عند التقدير بأقل من "الخطأ الفادح" الذى يقودها الى الهزيمة وربما الاذلال الذى لم تكن تتصور مرارته يوماً. وينبع تشوفنا لهذا المصير من حقيقة أن هذه الحرب سوف تندلع بين طرفى نقيض، **أحدهما** يمثل وعيا سياسيا وإجتماعيا مهجوسا بالبحث عن السعادة ما يضع قيودا بل وسدودا أمام إندفاعاته عندما يلوح له فى الأفق أن خياراته العسكرية تبعث على الألم أو تستنزف الدماء، ومن ثم تتطلب تضحيات كبرى تبدو فى تصوره غير ممكنة أو مبررة طالما تبعث على الألم الإنسانى أوتزيد من التكلفة الإقتصادية وتقلل من بريق ما يسمى بـ "الحلم الأمريكى". أما **الآخر** فيمثل وعيا نضاليا نقيضا تتوفر لديه بل وتتكثف في شخصيته الحضارية تقاليد تاريخية عريقة، وروح قومية ناجزة، ومذهب إعتقادى مجبول على التضحية، ما يجعله

[1] – زبجنيوبريجنسكى، الفوضى : الإضطراب العالمى عند مشارف القرن الحادى والعشرين ، ترجمة مالك فاضل، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ .

[2] – فريد هاليداى ، الكونية الجذرية لا العولمة المترددة ، ترجمة خالد الحروب ، دار الساقى ، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .

يستميت فى الدفاع عن كرامته القومية باستدعاء كل مخزونه النفسى ومن دون قيود أو حدود لما يمكن أن يتحمله من ألم إنسانى، أو تكلفة إقتصادية. وفى حالة كهذه لا يكون أمام الطرف الأقل رغبة فى التضحية، مهما كان حجم قوته، إلا الإنسحاب أو الهزيمة.

وأما الدافع الثالث: فيتعلق بالنظام العالمى نفسه والقيود المتزايدة على حرية الحركة الأمريكية قياسا الى ما كان عند إحتلال العراق مثلا، وخصوصا فى ظل نمو الدور الروسى – الصينى الرافض للخيار العسكرى، بل والرفض الروسى حتى الآن لتوقيع عقوبات إقتصادية مغلظة على إيران تحرمها من عائد صفقات كبيرة نفطية وتسليحية تجاوز حد الـ "٢٠ مليار دولار" عقدتها إيران بذكاء سياسى شديد فى التوقيت الذى يجعل من بدء سريانها قرينا لبدء إشتعال الأزمة. وبرغم أن المانيا وفرنسا، قد حاولتا لعب هذا الدور نفسه وفشلتا فى صد الإندفاع العسكرى الأمريكى نحو العراق، فإن الأمر يبدو مختلفا هذه المرة بالنسبة الى روسيا وعلى أكثر من صعيد؛

- فإيران تمثل لروسيا بالذات ما هو أكثر بكثير مما مثله العراق المحاصر لألمانيا وفرنسا على الصعيد الإستيراتيجى كنتيجة للقرب الجغرافى.
- كما أن الأزمة العراقية تبدو كخبرة تاريخية، إيجابية للولايات المتحدة تدفعها الى التمادى، وسلبية لروسيا تثير لديها التوجس من أن مزيد من التراجع يعنى المزيد من الإندفاع الأمريكى. والمؤكد أن خبرة صراعية واحدة مهما كانت حدتها لا تدفع الى تفجير نمط تفاعل دولى قائم، غير أن تكرار هذه الصراعات يفجر بلا شك إستقطابا دوليا حولها.
- والأهم من ذلك أن الأزمة الإيرانية تنفجر فى وقت يشهد إستعادة روسيا لعافيتها الإقتصادية، وأيضا تحقيقها لبعض المكاسب الإستيراتيجية على حساب السياسة الأمريكية فى روسيا البيضاء وأوزبكستان، وأوكرانيا، ما يعنى توقف مسلسل الإخفاق المستمر للسياسة الروسية فى مواجهة نظيرتها الأمريكية منذ الإنهيار السوفيتى.

وربما تفسر هذه العوامل جميعا ما أسماه بعض المحللين "بوادر حرب باردة جديدة" ونتصوره نحن إنتفاضة للروح القومية الروسية ضد الغطرسة الأمريكية

فى التعامل معها كشف عنها السجال الذى دار فى العام الماضى "٢٠٠٦" بين قادة البلدين وإختتمه الرئيس الروسى بوتين فى خطاب حالة الإتحاد مؤكدا "عزم روسيا تطوير قدراتها العسكرية خصوصا النووية" ومحذرا الولايات المتحدة من شن عملية عسكرية ضد إيران لأن "وسائل القوة نادرا ما تعطى النتائج المطلوبة، وغالبا ما تكون عواقبها أكثر فظاعة من التهديد الأصلى". وقد إستقبلت النخبة السياسية الروسية خطاب بوتين بترحيب شديد، باعتبار أنه "يحمل نظرية للسياسة الخارجية الروسية حتى عام ٢٠١٠م".

وفى الحقيقة يبقى هذا السيناريو الأفضل عربيا ما يوجب علينا دعمه من خلال صفقة شاملة مع إيران تتأسس على "المصالح المشتركة" وتبادل الموقف العربى الإيجابى حيال الملف النووى الإيرانى، بموقف إيجابى إيرانى من قضيتى الجزر الإماراتية، وإدارة مرحلة الإنتقال فى العراق، خصوصا وأن عراق ما بعد الإحتلال لن يعود فى الأغلب الى الفضاء القومى مباشرة، بل سوف يدخل مرحلة إنعدام وزن قد تطول أو تقصر يعانى خلالها من تصارع النفوذ الأمريكى – الإيرانى عليه. ولسرعة تجاوزها، يتوجب على العرب تحديد الطرف الذى يمكن مشاركته فى إدارتها، وهل هو الولايات المتحدة التى تنوى إقامة قاعدة عسكرية كبرى لضمان مصالح تسهم فى توجيهها أجندة إسرائيلية تهمش البعد القومى للعراق. أو هو إيران الدولة الجارة التى لها مصالح مؤكدة فى العراق يمكن الحوار حولها، ولكنها لا تحتاج لقاعدة عسكرية ولا تستطيع فرض إملاءات حقيقية كبرى على العالم العربى حتى لو أرادت، كما أنها لن تحيل العراق الى فضاء خلفى لإسرائيل.

هذه الصفقة يمكن تجسيدها فى مبادرة عربية يتم صياغتها وتوجيهها الى الأمم المتحدة تتأسس على موقف مؤداه: إما ضرورة إخلاء منطقة الشرق الأوسط من الأسلحة النووية وعلى رأسها السلاح النووى الإسرائيلى، أو التسليم بحق إيران فى تخصيب اليورانيوم على أراضيها، والمضى قدما فى تطوير قدراتها النووية السلمية طالما أن اسرائيل تملك السلاح النووى منفردة. وتنبع معقولية هذه المبادرة العربية من عدة إعتبارات أهمها:

أ- أن تنسيق المواقف بين العرب وإيران سوف يضع قيودا على الصفقة الإيرانية – الأمريكية الذى جرى الحديث حولها فلا تكون ضد المصالح العربية

بالضرورة، سواء لأن التنسيق العربى مع إيران سوف يقوى من موقفها التفاوضى ويقلل من حاجتها الى الصفقة الأمريكية، ومن ثم الى تقديم تنازلات أو دفع أثمان غالية. أو لأنه سوف يدفع الولايات المتحدة الى إعادة تثمين المواقف العربية المعتدلة التى صارت مهملة باعتبارها من البديهيات، ويضغط عليها نحو عدم الإجتراء على المصالح العربية الأساسية.

ب - كما أن القدرة النووية الإيرانية، حتى فى حالة إمتلاكها للسلاح النووى لا تمثل أدنى خطورة على العالم العربى وبالذات مناطق الإحتكاك مع ايران فى الخليج والتى تزخر أساسا بالأقليات الشيعية التى لا يمكن استخدام مثل هذا السلاح فى إبادتها. كما أن ايران برغم خطابها السياسى المتشدد تبدو عقلانية بما يكفى لكبح جماح نفسها عن الإستخدام العدمى لهذا السلاح إذ تبرر شرعيته الداخلية بالدفاع عن الأمة الإسلامية، كما تدرك أن إستخدامه فى غير أغراض الردع يكفى مبررا لأن تقوم الولايات المتحدة بإبادتها نوويا.

ج - ومنها أن المنطقة لا يمكن أن تبقى بكاملها حكرا على السلاح النووى الإسرائيلى، ورهينة له، فاذا كان ذلك يمثل مصلحة اسرائيلية / أمريكية فهو بالقطع لا يمثل مصلحة عربية/إيرانية، ولا شك فى أن الخروج من مأزق الإنفراد الإسرائيلى النووى يبقى أمرا مطلوبا، ولكنه غير متصور إلا عبر طريقين؛

الطريق الأول هو تحييده من خلال امتلاك طرف عربى له، وفى ظل تعذر وجود مالك عربى ربما يكون الخيار الإيرانى / الإقليمى هو البديل الممكن الآن وخاصة بعد نجاحها فى إمتلاك دورة كاملة للوقود النووى. ليس لأن القنبلة الإيرانية هى بمثابة "القنبلة الإسلامية"، بل لأن المنطق الإستيراتيجى البسيط يقول: أن إنتشار أى سلاح مهما تكن خواصه وعدم تركزه فى قبضة واحدة يقلل من أهمية حيازته أصلا، فضلا عن نمو آلية الردع بين المالكين له.

الطريق الثانى هو المطالبة بنزعه لإقامة منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل، وهو خيار مثالى لا يمكن لإسرائيل القبول به إلا فى ضوء إمتلاك طرف مناوىء له بحيث يكون النزع متبادلا. وفى ظل غياب القدرة النووية العربية، تمثل إيران هذا الطرف الإقليمى باقتدار. ومرة أخرى ليس

لأنها تحوز القنبلة الإسلامية، ولكن لأنها تثير مخاطر الإنتشار المتزايد وهو سيناريو بالغ الخطورة لابد وأن يحرك الولايات المتحدة نحو فرض حظر شامل على المنطقة وقد يحفز إسرائيل الى قبوله لإدراكها خطورة الفوضى على وجودها.

ربما كانت المشكلة الأساسية فى هذا الخيار تكمن فى حالة الخمول السياسى التى يغيب معها الخيال، والكسل الإستيراتيجى الذى يقتل روح المبادرة، ما يحرم العقل السياسى العربى من التمرد على مألوف سياساته وأنماط تفكيره، ولو فعل لنجح فى الإفلات من القيود الضاغطة وأغلبها نفسية متوهمة إزاء "القدر الأمريكى". صحيح أن ذلك التمرد يتطلب قدرا من المخاطرة الإستيراتيجية، ولكن متى تقدمت الأمم أو نهضت أو أعملت إرادتها فى التاريخ من دون مخاطرة أو حتى مغامرة؟.

ثالثا: نحو الجسر التركى...عبورا الى الشاطىء الغربى

تكمن أهمية النموذج التركي فى الجدل الذي يعيشه بين الهوية والحداثة منذ نحو القرنين، كما تنبع جاذبيته من السير الجدلى الناجح، حتى الآن، نحو تجاوز "الأصولية العلمانية" التى جسدتها الصياغة "الكمالية" للهوية القومية فى القرن العشرين، وأيضا تجاوز "العثمانية التقليدية" التى جسدت الصياغة التاريخية للهوية الإسلامية قبل القرن العشرين بإعتبارها سلفية تاريخية، وذلك باتجاه "العثمانية الجديدة" التى يتصالح داخلها الإسلام مع الحداثة كصياغة جديدة لهوية تركية فى القرن الحادى والعشرين تصبح نموذجا حيا وخبرة عملية تلهم المصالحة التاريخية نفسها على المستوى الحضارى بين الشرق العربي الإسلامي في كليته، وبين الغرب في عمومه، وذلك عند نقطة توازن لا تتنكر لقوة حضور الغرب في عالمنا المعاصر ولا لجاذبية قيمه الفكرية والسياسية ولا للحظات التثاقف الإيجابي معه. ولكنها فى المقابل تضع هذا الحضور في موضعه، وترده إلي أصله باعتباره تجربة في التاريخ وإن كانت زاهرة، وليس وصفة سحرية للتقدم كما تصورت الأصولية العلمانية الكمالية في القرن العشرين. ومن ثم تصبح تركيا الجديدة جسر عبور إسلامى الى الفضاء الأوروبى، وبوابة دخول أوربية الى الفضاء العربى الإسلامى.

غير أن تحقق ذلك يبقى مشروطا بأمرين أساسيين يطرحا علينا سؤالين كبيرين **أولهما** عن الكيفية التى عمل بها النموذج التركى ليصل الى اللحظة "التعادلية" الراهنة. **وثانيهما** عن الشروط التى تجعل هذا التعادل الناجح فى تركيا منتجا لنا على الشاطىء الشرقى للحضارة، ومقنعا لهم على الشاطىء الغربى لها.

١- مفهوم الجدل الهيجيلى وتحولات النموذج التركى

أما السؤال الأول عن الكيفية فيستدعى لدينا مفهوم الجدل الهيجيلى الذى تحولت به تركيا بين صورتيها المتناقضتين طيلة القرن العشرين، سواء من على الشاطىء الشرقى نحو الغربى عندما كانت صورة الشرق لا تزال فى موقع الإيجاب مجسدة فى العثمانية التقليدية والخلافة الإسلامية، وذلك نحو الصورة السالبة الكامنة فى العلمانية التى كانت لا تزال نحيلة وتطالب بموضع قدم على ساحة الهوية التركية، أو من على الشاطىء الغربى نحو الشرقى بعد أن جسدت تركيا القومية، أو حاولت، تجسيد صورة الغرب، وبعد ان أدركت ان الصورة

رغم جاذبيتها لا تغنى عن الجسد، وأن العقل لا يلغى الروح وان تغيير الملبس لا يضمن تغيير الواقع، فعادت تبحث لها عن جذور تربطها بالأرض، وعن قلب يوازن عقلها الجامح والمحبط معا، غير أنها لم تكن تبحث – عن صدق ووعى – عن تلك الصورة القديمة، وإن وجدت عصارتها، ولكن عن تلك الصورة المستجدة الجدلية التوفيقية. باختصار عن الصورة التعادلية، التى من خلالها تستطيع القول، وربما صادقة، بأن التناقض قد خفت حدته، وأن الجدل كان خلاقا بين عنصرى هويتها المتناقضين العثمانية والكمالية، وأنه قد آن لها أن تهدأ نوعا قبل أن تبدأ فى جدل جديد نحو تعادل جديد وهكذا.

فالهوية ليست أقنوما ثابتا يعطي للأمم مرة واحدة وإلي الأبد، وبشكل يعلو علي التاريخ، لكنها فاعلية الأمم المستمرة وهي تلتحم بمتغيرات عصرها من داخل روحها التكوينية/ شخصيتها الحضارية. ولأن روح الأمم تعرف ثباتا نسبيا ومتغيرات العصور قانونها التحول، فإن الهوية بهذا المعني تقع بين شقي رحي عوامل الثبات، والتغير، ولذا فوجودها التاريخي تصوغ مضموناته عمليات تشكيل مستمرة ومتوازنة، ترفض الجمود عند لحظة تركيبية بعينها، وتأبي في الوقت ذاته الإنخلاع من كل لحظاتها التكوينية السابقة. فهي إذن عمليات تشكل أقرب إلي النحت في صخور الجرانيت، حيث التطور بطيئا جدا يفعل فعلة بالتراكم، منها إلي القطع في لدائن البلاستيك، حيث التطور حادا يفعل فعله بالانقلاب أو التمزق.

وفي الحالة التركية[1] بشكل خاص مثلت الأتاتوركية بكل مكوناتها تحولا انقلابيا، كأنه قطع في لدائن البلاستيك، علي الهوية الإسلامية التاريخية، دون سند إلا من وعد تاريخي بالتحديث والتقدم حاول في الحقيقة إعادة تصنيع/تغريب المجتمع وليس مجرد تغييره، حيث مثل النمط الغربي وصفة سحرية للتقدم وليس مجرد تجربة إنسانية في التاريخ، بينما أصبح الإسلام هو الآخر الذي تتحدد في مواجهته الذات التركية في الصياغة الأتاتوركية للهوية.

ولأن المجتمع التركي ليس مجرد لدائن بلاستيكية قابلة للتصنيع علي نحو نهائى، فقد أبدي ممانعة متزايدة لهذا التحول، أسهمت في تدعيمها عوامل شتي

[1] – انظر : للمؤلف ، تحولات الهوية ..والعلاقات العربية – التركية، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، طبعة عام ١٩٩٩م.

محلية ودولية وإقليمية، وتغذت ربما من إخفاق الوعد التاريخي بالتقدم، ولكنها نبعت بالأساس من الرغبة في الخلاص بالروح من إفك التغريب وحالة الاغتراب التي لفت الشخصية والتكوين. ولقد عاش المجتمع التركي حالة الممانعة هذه منذ الخمسينيات علي الأقل، وعبر مرحلتين أساسيتين، ومارسها بشكل مختلف في كل منهما؛

في المرحلة الأولي: والممتدة بين الخمسينيات والثمانينيات، مارس الامتناع بالتفكيك البطيء للأتاتوركية، والاستعادة الوئيدة للإسلام عبر عملية إحياء إسلامي بدت عميقه الجذور في قلب المجتمع التركي، غير أنها ظلت متبرعمه للمجتمع تنمو في سياقه، وحسب تحولاته، خاصة المجتمع التقليدي في الأناضول، ولم تستطع أن تخترق النخبة الحاكمة ولم تكن قط نبتا للدولة التي ظلت نخبتها علمانية متطرفة تري وتعرف نفسها وبلادها، من خلال الصيغة الأتاتوركية.

وفي المرحلة الثانية: التي بدأت بمطلع التسعينيات أخذ يمارس الامتناع بالبناء الوئيد للعثمانية الجديدة كخطاب هوية يرتكز علي الإسلام ويستند إلي ركائز قوة سياسية صاغتها مظاهر الصحوة الإسلامية المتنامية، والمدعمة بالعوامل المحلية والخارجية منذ الثمانينيات كما وكيفا فأفرزت مع بداية التسعينيات نخبة جديدة مثقفة بقدر ما هي مسلمة، تمكنت بفضل استقلاليتها المتنامية عن الدولة، ومرونتها واعتدالها السياسي من اختراق نخبة الحكم والنظام السياسي لتطرح خطابها الجديد من داخل الفضاء السياسي أيضا، وليس المجتمعي فقط، ليكون منافسا للخطاب الأتاتوركي في التعبير الرسمي عن الهوية التركية.

في هذا السياق قاد الرفاة الإسلامي حامل لواء "العثمانية الجديدة" في التسعينيات، سيناريو المعارضة بالمعني التاريخي قبل السياسي، إذ مثلت تجربته في السياسة التركية محاولة لإستئناف الحكم الأتاتوركى الصادر قبل ثلاثة أرباع القرن علي تركيا بالعلمانية المتطرفة. والعثمانية الجديدة ليست صيغة انقلابية، فهي ذات منحي توازني بين ثنائيات عدة في تأسيس الهوية، وفى التعبير عنها من قبيل: الدين والعلم، الإيمان والعقل، العرق والإنسانية، الدولة والمجتمع علي صعيد التأسيس لها. ومن قبيل: الثقافي والسياسي، الماضى

والحاضر، الشرق والغرب، على صعيد التعبير عنها أو النزوع الى تجسيدها. والمهم لدينا فى هذا السياق هو الثنائية الحضارية، إذ تقدم العثمانية الجديدة رؤية توازنيه للعلاقة بين الشرق/ الماضى والغرب/ الحاضر ترجع التخلف العثماني للممارسات الإمبراطورية العثمانية كمنتج للسلوك البشري لا ينجم بالضرورة عن الدين. كما تضع علاقتها بالغرب موضع افتراض، فإذا كان الإرتباط بالغرب والأتاتوركية لم يمنحا تركيا تقدمها المأمول طيلة القرن، فإن الاستمرار في فرضهما يصبح أصولية علمانية معكوسة تحتمي بالأمر الواقع وتعيش في مركب قصورها الذاتي، لذا فهي تدعو فقط إلي رد العلاقة بالغرب إلي حجمها الطبيعي، من كونها وصفة سحرية للتقدم إلي علاقة عادية محل للحساب وإعادة التأمل.

وهنا يمكن فهم المشهد التركى الممتد في القرن العشرين، ولايزال في وريثه الحادي والعشرين حسب منطق الجدل الهيجيلي، إذ النموذج العثماني الإمبراطوري أو العثمانية التقليدية تمثل الصورة الأولي أو الأصلية أو الموجبة للهوية التركية، وهي صورة استمرت قائمة نظريا حتي إعلان الجمهورية عام١٩٢٣، وسقوط الخلافة رسميا عام١٩٢٤. ولكن المنطق الجدلى للتطور التركي يؤكد علي أن الصورة النقيضة أو السلبية/ الأتاتوركية، كانت تتخلق في رحم الأولي منذ بداية الثلث الثاني للقرن التاسع عشر، وتحديدا منذ بداية عصر التنظيمات في١٨٣٩، ثم تنامت مع إعلان أول دستور عام١٨٧٦، مرورا بتكوين جمعية الاتحاد والترقي التي أجبرت السلطان عبدالحميد علي إعادة العمل بالدستور عام١٩٠٨، ثم الحرب التحريرية التي قادها كمال باشا أتاتورك انطلاقا من فضاء الدولة الوطنية وليس الإمبراطورية التاريخية كزعيم وطنى حرر الأرض التركية في مواجهة المحتل الفرنسي والإنجليزي بعد الحرب العالمية الأولي.

ولقد استمرت هذه الصورة في النمو لنحو القرن قبل أن تسود وتعلن عن نفسها علي المسرح السياسى التركى، وقد نمت تلك الصورة من السلب نحو الإيجاب لأسباب موضوعية، يأتى علي رأسها التراجع العثمانى المستمر في مواجهة أوروبا منذ فشل الحصار الثانى لفيينا عام ١٦٨٣م. وبداية مسلسل الهزائم أمام روسيا ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومنها تفكك الأبنية التاريخية

القائمة علي الإقطاع الديني العسكري الذي جسدته العثمانية التقليدية مع تراجع العصور الوسطي وزحف العصور الحديثة علي أنقاضها، وهو ما تجسد تاريخيا وسياسيا في بروز أوروبا كقوة حديثة متقدمة مهيمنة علي مقادير العالم منذ القرن الثامن عشر علي الأقل، وعلي تخوم تركيا العثمانية حامل لواء الشرق العربي الإسلامي بوجه أخص. فقد أدركت الخلافة العثمانية تلك الحقيقة، وبدأت في التكيف معها ومحاولة تحديث نفسها باستعارة النمط الأوروبي، وكان في قلب هذه العملية التاريخية الجيش العثماني نفسه الذي مثل الأداة العملية في التحديث سواء علي صعيد وسائل قتاله وأنماط تدريبه ووسائل عيشه ونظام الحياة والملبس داخله. أو علي صعيد قيامه هو نفسه بمحاولة زرع التحديث في الخلافة نفسها. ثم وهو الأهم، نهوضه بعملية التحرير الوطنى وإعلان الجمهورية تدشينا لتركيا الدولة القومية الحديثة، وهى اللحظة التاريخية نفسها التي شهدت إنقلابا في اتجاه الجدل بين طرفي الصورة فباتت العلمانية الأتاتوركية هي الصورة الأصلية أو قطب الموجب للجدل بديلا للعثمانية التقليدية، والتي أخذت في التواري تحت سطوة عملية التغريب العنيفة التي قامت بها النخبة الأتاتوركية من خلال الجيش والبيروقراطية التركية، التي حاولت إلغاء رموز الهوية التركية، بدءا من الخلافة الإسلامية عام١٩٢٤، ثم إلغاء الطربوش، وحل الطرق الدينية عام ١٩٢٥، وتبني القانون السويسري عام١٩٢٦، وإلغاء اعتماد الإسلام كدين رسمي للدولة، وتغيير حروف الكتابة من العربية إلي اللاتينية عام ١٩٢٨، ورفع الآذان بالتركية عام ١٩٣٢.

غير أن سطوة عملية التغريب من خلال علمانية متطرفة لا تأخذ الموقف المحايد من الدين كما في السياق التاريخي/ الغربى، بل تعتبر رفض الدين ومعاداته علي المستوي الاجتماعي والطقوسي هدفا لها، قد استفز في مواجهة العلمانية الأتاتوركية كصورة "موجبة" للجدل، الصورة الأخرى "السلبية" لهذا الجدل ممثلا في نزعة عميقة وإن كانت خافتة لإحياء الإسلام الذي كانت عملية التغريب قد قمعته فقط دون قدرة علي اقتلاعه من وجدان الإنسان التركي، باعتباره معينا للهوية والخلاص الفردي والروحي في مواجهة قسوة عملية التحديث وتعثرها في الوقت نفسه. وبالطبع لم يكن الإسلام الذي انبعث سالبا

هذه المرة في الجدل حول الهوية، هو الإسلام التقليدي بمكوناته ومقولاته ومفرداته، القروسطوية، بل الإسلام الحديث إلي حد كبير حول العثمانية الجديدة ذات العمق الوطني والقومي التركي، والروح الديمقراطية النامية والتوجهات الاجتماعية التقدمية والاقتصادية الرأسمالية، وهي المقومات التي جعلت منها منذ تسعينيات القرن الماضي، وبعد نصف قرن تقريبا من إنبعاثها طرفا قويا ومؤثرا في الجدل حول الهوية.

ورغم استمرارها في موقف السلب والمعارضة حتي تجربة حزب الرفاة لمهندس عملية الإحياء الإسلامي نجم الدين أربكان، والذي تم تفكيكه وتجميد زعيمه ثم تراجع وريثيه حزبى: الفضيلة والسعادة، فإن الصعود الكبير لحزب العدالة والتنمية بقيادة رجب طيب أردوغان تلميذ أربكان الأكثر كارزمية أثبت قدرة العثمانية الجديدة علي التجدد، بل والتمدد أيضا، بمثل ما أكد – على حد وصف أحد المحللين الأتراك – نهاية طبقة سياسية كاملة تصدرت الساحة التركية في نصف القرن الماضي بإلهام الأيديولوجية الكمالية.

غير أن هذا التطور لا يعني أسلمة تركيا من ناحية، إذ يبقي حزب العدالة والتنمية حزبا ليبراليا في أغلب التصورات المعلنة عن رموزه، وإن انتفت عنه معاداة الإسلام كمعتقد وتقاليد في المجتمع التركي. بما يعني أنه يسعي إلي تجذير الإسلام الحضارى في المجتمع وليس إلي فرض الإسلام السياسي علي الدولة. أي أنه ينتصر للعلمانية في خبرتها الأوروبية، وذلك علي الكمالية التي تمثل نوعا من الأصولية العلمانية المعادية للدين في الدولة والمجتمع معا.

كما لا يعني استقرار الوضع تماما لحزب العدالة والتنمية، وإن كان يؤكد على انتصار عناصر الإعتدال على جانبى الجدل حول الهوية فى عمليات التشكين الثقافي/ التاريخي بالغة التعقيد، ما يعنى استقرار جدل الهوية داخل إطار يتسع تدريجيا حول الصيغة التى يجسدها حزب العدالة والتنمية للعثمانية الجديدة. أى أن العثمانية الجديدة ستتحول تدريجيا الى وعى وسطى توفيقى لنخبة أوسع بكثير من حزب العدالة والتنمية أو حتى من النخبة الإسلامية الحالية، إذ سوف تميل إلي أن تكون تعبيرا ثقافيا عاما معلقا علي الفضاء السياسي بأكثر من كونها إيديولوجية حزب سياسى معين في مواجهة آخر نقيض بالضرورة. وربما يتغير مسماها حينذاك بمسميات أخري تحددها حواملها السياسية في

العقود التالية – حيث أن مصطلح "العثمانية الجديدة" نفسه كان أكثر ذيوعا في الثمانينات والتسعينيات عنه الآن – ولكن مع بقاء مضمونها الاعتدالي ورؤاها التوازنية للعالم السياسي المحيط بها في وضع أفضل ومتنام باستمرار في ساحة التعبير عن الهوية التركية. ذلك أن الظاهرة في مجملها هي ظاهرة تاريخية في الإحياء الثقافي لمجتمع عاني من علمانية متطرفة ومن قسوة الحداثة وإحباطاتها، كما عانى سلفا من تخلف تاريخى وتراجع حضارى بعد تفوق ساحق، ومن ثم فإن المنطق الجدلي يؤكد علي صعوبة الإرتدادات العنيفة نحو أى من طرفى الجدل الموجب أو السالب، الأمر الذي يقود إلي اندماجهما في مركب إسلام عقلانى يستطيع إنجاز المصالحة التاريخية بين ماضي تركيا ومستقبلها.

وهنا يأتى السؤال المهم وهو: إذا كانت الكيفية التى عملت بها تركيا قد وصلت بها الى أن تتصالح مع نفسها، ومكانها، وتاريخها، فهل يمكن ان تكون هى أيضا ذلك الجسر الذى يتم علية لقاء المصالحة بين الشرق والغرب؟. ويتفرع السؤال فى الحقيقة الى إتجاهين، مثيرا لتحديين أساسيين: **أولهما** عن مدى إمكانية تقبل أوربا للنموذج التركى؟ **وأما الثانى** فهو عن قدرة العالم العربى على تجسيد هذا النموذج التركى ؟.

٢- جدل العقل الأوروبى حول النموذج التركى

وعلى صعيد **السؤال/ التحدى الأول** تمثل المفاوضات التركية مع الإتحاد الأوربى إختبارا حقيقيا لرغبة أوربا/ الغرب فى التعايش مع عالم الشرق الحضارى الإسلامى، والذى يبقى النجاح فيه مشروطا بعمق التسامح الغربى مع القيم الثقافية والأبنية السياسية للحضارة الإسلامية في تيارها الوسطي المعتدل والذى يجسده النموذج التركى الراهن، والذى يواجه الآن تيارين نقيضين فى الفكر الغربى المعاصر:

فثمة تيار نقدى واسع تجسده أدبيات شتى تتمثل فى النزعة "الانسانية" داخل الثقافة الغربية تبدى تسامحا معنا بقدر ما تنتقد ذاتها من منظور الحقيقة التاريخية. هذا التيار يستلهم قيم التنوير الغربى الذى مثل كانط ذروته، فى صياغته لمثل الحداثة السياسية، حيث اعتقد بأن التاريخ مدفوع دوما الى الرقى

ولكن ذلك لن يتحقق إلا إذا تأسست منظومتان قانونيتان تسيران جنبا الى جنب، إحداهما تسير الشئون الداخلية للمجتمع الواحد على أساس من الحرية والعدل وصولا الى الديمقراطية. والأخرى تنظم العلاقات بين الأمم على أساس من العدالة والتكافؤ وصولا الى السلام، مؤكدا على أنه لا يمكن تحقيق الحرية داخل الأمم اذا لم يتحقق العدل والسلام بين هذه الأمم. ومن ثم اقترح كانط هيئة دولية تقوم على مهمة السلام العالمى فى موازاة عملية تطوير الديمقراطية الليبرالية فى المجتمعات المحلية، محذرا من ان تعامل هذه الهيئة مع بعض الدول المكونة لها بغير تكافؤ أو عدالة إنما يفسد عملها وينهى السلام العالمى، مثلما يؤدى الخروج على فكرة سيادة القانون الى تقويض الديمقراطية داخل الدولة/الأمة.

كما يستلهم الروح النقدية الحارة لفيلسوف العلم النمساوى الراحل كارل بوبر الذى قدم إحدى أبرز الإسهامات فى نقد المركزية الغربية عندما طرح نقده لنظام فهم العالم لدى هيجل مبينا فيه السبب لكل الانحرافات الشمولية فى الدولة الحديثة حيث ظل الفكر الغربى المعاصر رهينة لنرجسية وطدت بشكل حاسم "نظام البديهيات فى كتابات هيجل" وخاصة عندما يتحدث عن الغرب أو الشرق وأممهما، أوعن المسيحية والإسلام أو الأنظمة الدينية الكبرى وكأنها ذوات حية وكائنات جماعية مشخصة وكليات شمولية، وبرغم ذلك فانها لا تتغير إلا قليلا بما يصبغها بطابع جوهرى لا زمنى.

ويتمثل هذا التيار الآن فى المفكر المرموق وعالم اللغويات الأشهر ناعوم شومسكى صاحب الإنتقادات الأبرز والأشمل للنظام الأمريكى، وللسياسة الخارجية الأمريكية ودعاواها المثالية عن نشر الديمقراطية وخاصة فى كتابيه "إعاقة الديمقراطية" و "ماذا يريد العم سام" اللذين يكشف فيهما عن طبيعة الأهداف "الحقيقية" المرجوة للولايات المتحدة من إدارة النظام العالمى طيلة النصف الثانى للقرن العشرين وكيفية تسويغها، حتى غير المشروعة منها، مؤكدا أن محورها الدائم إنما كان تخريب الأنظمة البرلمانية والإطاحة بها واللجوء الى العنف لتدمير المنظمات الشعبية التى قد تتيح لأغلبية السكان فرصة الدخول الى الحلبة السياسية.

ويتمثل كذلك فى عديد من الأدبيات الممتدة من الفلسفة الى التاريخ والسياسة والأدب لدى: الفيلسوف الألمانى يورجن هابرماس الوريث الشرعى للمدرسة النقدية الألمانية وداعية "الحداثة الجديدة " التى تتجاوز تناقضات الحداثة وتقيم تواصلا مع عصر التنوير فى ذروته الكانطية التى تؤسس السلام العالمى على قاعدتى العدالة والحرية، وكذلك الفرنسى جاك دريدا فيلسوف التفكيك ووريث النزعة الشكية الفرنسية وأبرز نقاد المركزية الغربية ودعاة بناء عقلانية جديدة تخلو من التحيزات. والمؤرخان: الايطالى بيتر جران الناقد البارز أيضا للمركزية الأوربية، والأمريكى هواردزن الناقد الأبرز"للحلم الأمريكى" والذى يكاد يتحول بالتوظيف السياسى مع الترويج الفكرى الى "نزعة تمركز أمريكى" تجعل من أمريكا محور تاريخ العالم، ومن تجربة الرجل الأبيض البروتستانتى الأنجلوساكونى ذاكرة أمريكا الرسمية. وكذلك الروائى الكبير جور فيدال صاحب النزعة النقدية البليغة للشخصية الأمريكية إذ يلاحظ تحولها من جمهورية ديمقراطية تقوم على اقتصاد السلام ومثل الحرية الإنسانية الى دولة أمن قومى تلهث خلف اقتصاد الحرب وتخضع لمقتضيات المجمع الصناعى العسكرى مايدفعه الى تسميتها الساخرة بـ "الشركات الأمريكية المتحدة" وذلك فى كتابه الأخير "حلم الحرب: دماء من أجل النفط وطغمة تشينى ـ بوش ".

هذا التيار الفكرى وما يجسده من تيارات سياسية فاعلة فى الحياة الأوروبية وخاصة اليسار الأوروبى الديمقراطى، هو الذى يدفع حتى الآن نحو الحوار مع تركيا، ويرى إمكانية قبولها فى القارة الأوروبية التى ينظر اليها هذا التيار على أنها كتلة جغرافية/ حضارية ذات نظام قيم سياسى منسجم ومتسق ومتطور فى التجربة التاريخية، ومن ثم يمكن لتركيا الوصول اليه وتلبية شروطة إذا ما كان لديها الإصرار الكافى، حيث لا يوجد تناقض حتمى بين قيمها ذات الجذر الإسلامى، والقيم الأوروبية ذات الجذر التنويرى.

وترسيخا لقيم التعايش الإنسانى يرى هذا التيار فى الفكر والسياسة الأوروبيين أن تركيا إذا إستطاعت تكريس نموذج الإسلام الحديث أى العقلانى المعتدل، فسوف تقدم خدمة جليلة الى أوربا نفسها التى يعيش على أرضها بالفعل ما يقترب من الثلاثين مليون مسلم يمثلون ثانى أهم التجمعات الدينية بعد المسيحية. ومن ثم فإن إعتناقهم لنموذج إسلامى راديكالى يؤخر بلا شك إندماجهم، ويثير

نوازع عدم الإستقرار على الأرض الأوروبية، ناهيك عن التوتر السياسى على شاطئها الجنوبى، فلا يستطيع أى مراقب منصف ان ينفى ملمح التأثير والتأثر بين أطراف الإسلام فى الجنوب والشمال، فهى سمة بارزة لا تحتاج الى تدليل، كما لا يستطيع هذا المراقب أن يقلل من تأثير وجود تركيا ضمن الفضاء الأوروبى على الحالة الذهنية ليس فقط للمسلمين على الأرض الأوروبية، بل للجماهير الواسعة فى العالم الإسلامى التى ينتفى لديها الشعور بغربة أوربا وإنغلاقها على نفسها بحجة كونها نادى مسيحى للأثرياء من المستعمرين القدامى.

وبرغم إصرار هذا التيار على ضرورة تلبية تركيا لشروط النموذج القيمى العقلانى قبل دخولها الى البيت الأوروبى، فإنه يعترف لها بما أنجزته من خطوات على هذا الطريق بدت واضحة فى ذلك القدر الملموس من التسامح فى التعاطى الفكرى والسياسى مع قضايا الأقليات الأساسية فى تركيا وخاصة مع الأكراد، والأرمن. حيث اشتد الجدل داخل تركيا قبل عام حول حقيقة مجازر الأرمن فى ذكراها التسعين "وقعت عام ١٩١٥م" والتى جاءت متوافقة مع بدء مفاوضات بروكسيل، حيث عقدت حولها فى سبتمبر ٢٠٠٥ أول ندوة علمية بجامعة تركية بعد طول وقت تم التنكر فيه لهذه المجازر العرقية من قبل التاريخ الرسمى الذى كان اعتبرها "إبادة مزعومة" وأصر على كونها مجرد "تشريد" للأرمن عقابا لهم على تمردهم المسلح لصالح روسيا فى الحرب العالمية الأولى.

ويمكن النظر الى فوز الروائى التركى "أورخان باموك" بجائزة نوبل فى الأدب العام الماضى"٢٠٠٦" فى هذا الإطار النقدى ولكن المشجع. فالرجل طالما استخدم أدبه فى فضح الرواية التركية لقضية الأرمن، والتشهير العلنى بالهوية التركية المنغلقة التى تنفى واقعة إضطهادها لهم والتى راح ضحيتها ما يتراوح بين ٣٠٠ ألف الى مليون أرمنى. وقبل حصوله على الجائزة بأكثر من عام كان محل جدل شديد داخل تركيا، وبين الأتراك أنفسهم، إذ ينظر اليه البعض بإعجاب لشجاعته الفكرية، وينظر اليه البعض الآخر بريبة معتبرا أنه صدى صوت لأوروبا. وهؤلاء القليلون هم الذين إستكثروا عليه الجائزة التى تصوروها سياسية فاتت على أدباء كبار عمرا وتجربة مثل ياشار كمال،

وعزيز نيسين، ومن ثم أخذوا يبحثون وراء الحدث مؤكدين على أن دافعه الأساسى هو إنحيازه للصوت الأوربى الذى طالما إتهمها بإبادة الأرمن، ولكنه تيار محدود على كل حال يشبه فى مصر مثلا، أولئك الذين قللوا من أهمية الدافع الأدبى لفوز العظيم نجيب محفوظ بالجائزة نفسها، ولم يجدوا ما يبرروا به موقفهم سوى روايته الشهيرة "أولاد حارتنا" التى تصوروها إهانة للقيم والرموز الإسلامية تلبية لنهم العقل الغربى الى هذا النوع المتمرد من التعبير الأدبى.

ان تثمين الوعى الغربى للأدب المنفتح فى شخص باموك، فيما بدا أصلا فى منحه الجائزة الأثيرة، وأيضا فى الإحتفاء بالحدث بعد ذلك إنما يكشف عن إصرار أوروبى على إستمرار حملة التطهر والإنفتاح التى قادها باموك فى الأدب، وينتظر أن يكرسها آخرون فى المجالات المختلفة وعندها يكون الباب قد فتح على مصراعية أمام الوعى التركى الى النموذج القيمى المنفتح، كمدخل الى البيت الأوروبى.

ومن المؤكد أن مجرد بدء المفاوضات الأوروبية - التركية منذ عام ٢٠٠٥ لايعنى ان الأمر قد انتهى، فالمفاوضات سوف تجرى حول عشرات الملفات الإقتصادية، والإجتماعية، والبيئية، والسياسية فى مدى زمنى يراوح بين ١٠ و١٥ عاما، وفى النهاية سيكون من حق الشعوب الأوربية فى دول الإتحاد الخمس والعشرين أن تصوت مع أو ضد الإنضمام التركى اليها، بينما لا تزال هذه الشعوب ترفض وجود تركيا داخل الفضاء الأوروبى بنسب عالية تراوح بين ٨٠% فى النمسا و٧٠% فى فرنسا مثلا. ما يكشف عن حجم الجهد الكبير المطلوب بذله من جانبى التفاوض لبلوغ النهاية السعيدة. وبرغم ذلك فإن مجرد البداية لا يمكن تسميتها إلا بكونها إنتصارا أوليا لنهج التعايش الحضارى بين الجانبين، خصوصا وأنها تأتى فى لحظة تاريخية مشبعة بالتناقضات على أرضية أحداث ١١ سبتمبر، وركام من هواجس صدام الحضارات أعقبت إحتلال العراق، وتوازت مع أزمات وإحتقانات عدة بين العالم الإسلامى والغرب على رأسها أزمة الرسوم الدانماركية، ثم تصريحات البابا بنديكتوس السادس عشر التى أثارت الإحتقانات نفسها مؤخرا، ولكنها لم تعق زيارة البابا الى تركيا، بل لم تحل دون ترك إيحاء إيجابى إزاء موقف الكنيسة الكاثوليكية من عضوية تركيا فى الإتحاد الأوروبى.

وفى المقابل، ثمة التيار العنصرى الذى يستند الى نزعة التمركز الأوربى على النحو الذى ذكرنا فى الفصل الأول. هذا التيار لا يرى فى الفجوة بين أوربا ونموذجها القيمى، وبين تركيا وهويتها الإسلامية مجرد "وضعية تاريخية" قابلة للتغيير فى إتجاه الأفضل، وعلى النحو الذى يدفع الى الحوار معها وليس صد الباب فى وجهها، وإنما يتصورها كحالة تناقض إستاتيكى لا تنطبق عليها قواعد الجدل التاريخى بأى معنى. فهو يتصور الإختلاف مع تركيا ليس فقط كبيرا بل أصيلا وخالدا لأنه ينبع من مقومات هويتها نفسها وخاصة فى بعدها الدينى، ومن ثم يتعامل بالسلب مع هذا الشرط التاريخى فيضع الإنتماء الثقافى، أو بالأحرى الدينى لتركيا عائقا يحول دون ولوج تركيا الى البيت الأوربى الذى يفترض فيه أن يبقى ناديا مسيحيا سواء صرح بذلك حينا أو أضمره أحايين، مغلفا له بشروط سياسية وإقتصادية بالغة القسوة والتعنت.

والمفارقة هنا تكمن فى موقف الكنيسة الكاثوليكية نفسها منذ عهد البابا يوحنا بولس الثانى، والتى لا تمانع "مبدئيا" فى وجود تركيا داخل البيت الأوروبى. وهنا يجب التأكيد على أن التيار الرافض لتركيا بحجة "أنها مسلمة" لا ينبع من الكنيسة، بل يتمحور بالأساس حول اليمين القومى المتطرف وخاصة فى البلدان الأوروبية الأساسية كفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا. وهناك زعماء سياسيين بدرجة رؤساء وزراء حكموا عبر تحالف مع هذا التيار العنصرى الإنغلاقى المتعصب، والذى يبرر مواقفه المكروهة فى كل مجال وحسب كل قضية بما يلائمها. وفى مواجهة تركيا يبدو العامل الدينى هو الحاسم، ومن ثم فهو يرفعه لا عن قناعة به، ولكن عن نفعية واضحة وانتهازية سياسية بالغة.

والذى لا شك فيه أن انتصار هذا التيار سوف يدفع تركيا الى نهج راديكالى فى التعامل مع القضايا الإقليمية الأمنية والإستيراتيجية، كما أنه سوف يعطى للتيارات السلفية العربية مبررا جديدا لكراهية الغرب وممارسة العنف ضده ما يجعل من هذا التعامل السلبى خطوة الى الخلف على طريق التعايش الحضارى. ولكننى هنا أسجل ثقتى الشديدة فى قوة التقدم التاريخى بكل إلهاماته، محمولاته، وخبراته، وفى قدرته على هزيمة كل تيار يناقضه ولو بعد حين أو جهد.

٣- الحوار العربى - الغربى عبر الجسر التركى

وأما السؤال/ التحدى الثانى فهو عن مدى قدرة العالم العربى الإسلامى على تجسيد النموذج التصالحى التركى؟. وربما كانت هذه المهة هى الأصعب فى ظل حال الدولة الوطنية العربية المأزومة بتعدديتها الثقافية أو الإجتماعية على النحو الذى أسلفناه فى الفصل الأول، فالإنقسام الطائفى، والصراع المذهبى، وغياب التكامل الوطنى الى حد الحرب الأهلية هى عناصر المشهد العربى الراهن.

ولا شك فى أن الحالة العربية هذه ترجع الى مزيج من العوامل المتداخلة الداخلية والخارجية. وفى كل المجتمعات تبقى العوامل الداخلية هى الأكثر محورية لأنها الأكثر هيكلية وبنيوية، قياسا الى العوامل الخارجية التى تبقى مكملة وضابطة وإن لم تكن مكونة وخالقة. ولكن الأخيرة تكتسب فى السياق العربى الاسلامى أهمية نسبية أكبر من السياق العام، كنتيجة للطبيعة التنافسية الشديدة مع العالم الغربى وهو التنافس الذى تعلو حدته وتهبط فى أوقات متقطعة، و لكنه أبدا لا ينقطع، وكأنه تناقض استاتيكى لا يندمج فى جدل ولا يتقدم الى الأمام.

وربما يرجع ذلك الى أن الاحتكاك العربى بالغرب استمر ظاهريا، رغم عنفه، على امتداد القرنين الماضيين حيث بدأ دامياً مع نابليون فى الأسكندرية، وانتهى كذلك مع بوش فى بغداد، كونه تأسس على منطق سجالى استطاع بلورة التناقضات بين أطراف ثنائيات عديدة منبثقة عن الثنائية الأصلية "العرب والغرب" فلم يغير جذرياً فى بنية الثقافة العربية التى هيمن عليها التلفيق لا التوفيق، فقادت الواقع الى الإضطراب، ولم يتأسس على منطق جدلى كان محتما أن يفضى الى بنية عربية جديدة مندمجة "توفيقية" من جماع البنيتين الموروثة والوافدة، ومن ثم أقرب الى الغرب وأقدر على التعايش معه لو أن هذا الإحتكاك جاء سلمياً هادئا بعيدا عن الهيمنة والقمع اللذين أخرا اللقاء بين الطرفين. ولعل ما يمنع هذا النمط السلمى من الإحتكاك هو تيارى التشدد على الجانبين، ففى الثقافة العربية الإسلامية ثمة التيار المتطرف / الإنقلابى. وفى الثقافة الغربية ثمة التيار العنصرى.

فالتيار السلفى، وهو الجذر الثقافى للإسلام الإنقلابى، يبدى موقفا مناوئا للحداثة الغربية وذلك - حسب تصوره - لوجود تناقض أساسي في رؤية كل منهما

للوجود، ولذا فهو يدعو إلى تأسيس نظام حياة شامل بديل لذلك الذى تؤسس له الحداثة الغربية التى ينسب إليها كل أزمات المجتمعات العربية الإسلامية والتى لا يمكن حلها إلا بتجاوز الغرب أو نفيه خارج الذات.

والتيار العنصرى، على الجانب الآخر، لا يقدر أبداً، وربما لم يشعر أصلاً بالأسئلة الحائرة والصعبة التي يطرحها التيار التوفيقى العربى، وهو الجذر الثقافى للإسلام العقلانى، حول كيفية التعايش معه. وهو فى الحقيقة غير مهتم بالحوار معنا ولا يقدر سعينا إلى هذا الحوار كونه لا يعيش مشكلاتنا الراهنة التي عاشها هو في لحظة زمنية سابقة، وحتى إن بقيت هناك مشكلة تحوز قدراً من الأهمية لديه فهو لا يتحاور معنا بشأنها حوار أنداد، وإنما يأخذ منا موقع المعلم الناصح لنا في حل مشكلتنا لأنه ينظر إلينا من خلال ذاته المتمركزة والتى تتدعم سلبيتها بآلية التنميط التى حكمت المخيلة الغربية وكرست للمسلم صورة واحدية مختزلة دوما مشوهة غالبا بعمق وحدة التنافس التاريخى بين الطرفين.

وما من شك فى صعوبة الحوار بين هذين التيارين وما يمثلانه، أو يرمزا اليه، بل يكفى أن ننظر إليهما فى ذروة تجسدهما "القاعدة وأسامة بن لادن من ناحية، واليمين الأمريكى المحافظ وجورج بوش من ناحية" حتى نتأكد من أن الحوار الوحيد الممكن بينهما هو من نوع ما يجرى أفغانستان والعراق، والذى يفكك دول ويدفع بأخرى نحو الإنغلاق تلبية لضرورات المواجهة التى لا تنتهى إلا بالنصر الإلهى والهيمنة على مقادير البشر جميعا.

ولا شك، فى المقابل، من أن التعايش يبقى ممكنا، والحوار محتما، ولكن بين تيارين أخرين أكثر إنسانية، وأميل الى التوازن الفكرى، والنزاهة المعرفية، وهما التيار التوفيقى فى الفكر العربى، والنقدى فى الفكر الغربى.

فعلى الجانب العربى يرى التيار التوفيقى في الغرب أحد روافد إلهامه الثقافي وإن كان يرفض وضعه كرقيب على ممارساته السياسية أو كحلقه وسطى في تفاعلاته الداخلية، وذلك لأنه يدرك وجود إختلاف حقيقى بين كثير من إلهامات الثقافتين العربية والغربية عند الجذور – أي على مستوى الرؤية الوجودية – ولكنه فى الوقت نفسه يعتقد فى إمكانية التوافق بينهما على الأصعدة العملية / الواقعية كأنماط الإنتاج الاقتصادى والتنظيم الاجتماعي والممارسة السياسية.

فهو إذن يصوغ رؤية ثقافية متوازنة للغرب لا تنحرف به إلى الملائكية أو الشيطانية وإنما تحتفظ له بصورته الإنسانية "العادية" وتسعى للحوار النقدى معه أخذا وعطاء، ولعل هذا التيار هو ما إدعته معظم التجارب والبناءات السياسية العربية فى القرن العشرين. وربما يكون هذا التيار قد فشل فى التحكم فى مسيرة الثقافة العربية أو بالأحرى فى قيادتها نحو النهضة والتحرر، ولكن هذا الفشل يرجع جزئيا الى ضغوط التيار العنصرى الغربى عليه فى غير مرة، وأكثر من لحظة تاريخية.

وفى المقابل يتجنب التيار النقدى تصوير المعركة ضد الإرهاب مثلا، على أنها حرب بين الإسلام والغرب بل بين التوجه الإنسانى المنفتح والتوجه المتعصب المنغلق، ما يكشف عن إدراك صحى للفارق بين حقيقة وجود تيار منغلق ينتمى للإسلام وبين إرتباط هذه الإنغلاقية بالإسلام وحده، بما يفترضه هذا الإدراك ضمنا من أن التيار المنغلق لا يعمل ضد أمريكا أو الغرب بالذات، بل ضد التيار المنفتح الذى يجد بعض تجسداته والهاماته لدى المنتمين الى الإسلام كما يجد بعضها الآخر لدى المنتمين الى الغرب، الأمر الذى يغذى الجدل الثقافى العالمى بنزعة إنسانية تعمل على تفكيك نزعة التمركز تدريجيا، كما يشكل قاعدة للإصطفاف الصحيح ضد الإرهاب كنزعة عبثية بل وعدمية، وليس كتعبير عن وعى / تيار إسلامى.

وهو يبدى، على العكس من نقيضه العنصرى، تفهما موضوعيا لأزمة الثقافة السياسية العربية يكاد يقترب من مثيله النقدى "التوفيقى" فى الثقافة العربية وخاصة علي مستوي الوصف إذ يؤكد علي هيمنة التسلطية السياسية والأبوية الاجتماعية، وهو وصف يقترب كثيرا من تصورنا نحن الآن عن أنفسنا والذي أخذ يسود تلك الأدبيات النقدية لحال الثقافة والمجتمعات العربية على الأقل منذ سبعينيات القرن الماضى. بل ولحال المثقف العربي ذاته والذي يطرح نفسه كداعية للتحديث ورسول للحداثة، بعد أن نضج وعيه فى ربع القرن الأخير بالذات الى درجة تمكنه من جعل نفسه موضوعا لتأمله، إذ يميل هذا التصور العربي النقدى الجديد إلي كثير من ركائز الوصف الغربي بل ويزيد عليه أحيانا حيرة المثقف العربي وتهافته أمام السلطة العربية علي النحو الذي يعوقه عن أداء دوره الرسالي في الدعوة إلي الحداثة سواء كانت الإعاقة خارجية من السلطة والمناخ السياسي، أو داخلية نابعة من وعي المثقف نفسه وانشطاره بين

رسالته من ناحية، ومنفعته الذاتية التي يعبر عنها انتماؤه الطبقي وموقعه السياسي من ناحية أخري.

غير أن الطرفين: النقدى الغربى، والتوفيقى العربى يختلفان على صعيد تفسير ما هو قائم بالفعل ؟. فالطرف الغربي يعطى الأولوية للعوامل الداخلية المتعلقة بأنماط التطور السياسى والاجتماعى التى مارستها المجتمعات العربية، وإن اعترف أحيانا – لدى رموزه الأكثر إنسانية كشومسكى وجارودى – بدور مكمل للعوامل الخارجية فى هذة الأزمة على منوال الاستعمار الغربى والاستيطان الصهيونى.

وعلى العكس فان الطرف العربي يعطى الأولوية دوما للملابسات الخارجية التى تعزو حالة الانسداد الديمقراطي والأحادية الفكرية والقهر الاجتماعي، إلي الضغط الغربي علي العالم العربي في المرحلة الاستعمارية علي نحو لم يتح له الفرصة للتطور الهادئ من داخله دونما شعور بالإضطراب، وان اعترف بخضوع المجتمعات العربية للصيغ التي فرضت عليها من قبل النخب التقليدية في الحقيقة والمراوغة بالحداثة نفاقا للعصر علي مستوي الأبنية الخارجية للمؤسسات والصيغ المجردة للدساتير.

كما يعترف التيار التوفيقى بمسئولية المجتمعات العربية الإسلامية عن إنتاج ظاهرة العنف السياسي بقدرة نسبية أعلي من المتوسط العالمي طيلة نصف القرن الأخير، ولكن ليس لأنها مجتمعات جامدة تعجز عن التغيير، بل لأنها بالفعل بدأت عملية التغير وتعيش الآن مرحلة التحول إلي الروح الحديثة وما تتسم به من عراك وتوتر ناجمين عن ممانعة الروح التقليدية بكل أبنيتها الإجتماعية، ومخزوناتها النفسية، وتنظيماتها السياسية وهي تحارب معركتها الأخيرة قبل الذبول ككتلة تاريخية متداعية، وليس بالضرورة عن تناقض حتمي مع الغرب.

ولكنه يؤكد – فى المقابل – على أن الغرب الذي يعيش الآن حداثة ناضجة، عاش سلفا ولأكثر من ثلاثة قرون مرحلة تحول ظل خلالها أكبر مصدر لإنتاج العنف السياسي في العالم وخاصة في لحظات ثلاث مفصلية وإن كانت ممتدة؛

- **اللحظة الأولى** بين القرنين السادس عشر والسابع عشر بإلهام الدين متجسدة في حروب الإصلاح الديني وخاصة بين هولندا وفرنسا وألمانيا وهى اللحظة التى أعقبت محاكم التفتيش مباشرة والتى تعد واحدة من أبرز مظاهر التخلف الحضارى والقمع الفكرى معا، "ففى نحو ١٨ عاما ما بين سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ حكم على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثمائة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت توراة بالعبرية. ومن يوم نشأتها سنة ١٤٨١ وحتى سنة ١٨٠٨ حكمت على ثلاثمائة وأربعين الف نسمة منهم نحو مائتى ألف أحرقوا بالنار أحياء وفى سنة ١٥٠٢ قرر مجمع لاتران أن يلعن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد"[١].

- **واللحظة الثانية** بإلهام الفكرة القومية العلمانية متجسدة في حروب فرنسا النابليونية مع أغلب الملكيات الأوربية المحافظة ما بين القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر.

- **واللحظة الثالثة** بين التاسع عشر والعشرين بضغوط النزعة التوسعية الإستعمارية متجسدة بشكل خاص في الحربين العالميتين الأولي والثانية. فلم يتوقف الغرب إذن عن إنتاج هذه الظاهرة بشكل أساسي اذ لم تختفي لديه تماما، إلا قبل نصف القرن.

وإذ يعترف هذا التيار للغرب بسبقه في هذا السياق، فإنه يحمله مسئوليات كبري تدور حول أهمية وعيه بمشكلنا الحضاري حيث آلام عملية التحول وما تتطلبه من تسامح مع التناقضات التي تثيرها وعلي رأسها ظاهرة العنف السياسي، ليس فقط لأنه أسهم في تضخيمها عندما تحالف مع تيارات العنف الديني في ربع القرن الأخير لحصار الشيوعية قبل سقوطها، ولكن بالأساس لأنه مسئول أخلاقيا وتاريخيا عن بعض دوافع أزمتنا الحضارية الشاملة.

ثمة دعوة إذن يمكن توجيهها إلي العقل الغربي اليوم: إذا ما أراد أن يفهم العقل العربي ويتواصل معه أن يوجه بوصلته نحو التيار التوفيقي العربى الذي يعيش

[١] - د. عبد الحليم محمود، أوربا والاسلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٦م، ص ٢٧ ــ ٢٨.

ألم التساؤل حول كيفيات التفاعل مع الغرب، فعليه أن يقدر هذا الألم بالسعي لإزالة هواجس هذا التيار الذى لا يمكن لغيره أن يقود تطور المجتمعات العربية رغم كل تعثراته وتلفيقاته أحيانا، وذلك بدلا من محاولة التيار العنصرى الغربى خطف الثقافة العربية لصالح التيار الإنقلابى بشكل انتقائي فج تبريرا للاتهام وتكريسا للصدام. ولعل العقل الأمريكى النفعى قد أدرك الآن حجم الوهم الكامن فى تصوره عن قدراته اللامحدودة على التحكم فى الظواهر السياسية بصناعتها أو توظيفها، وهو وهم كبير قد تغذيه القدرة الأمريكية الشاملة المتفوقة، ولكن يفضحه الواقع والتاريخ معا وخاصة فيما يتعلق بالظواهر ذات الجذر الثقافى أو الإلهام الدينى ولعل خبرتها مع الإسلاميين فى أفغانستان إبان الغزو السوفيتى، وبعده وحتى احداث سبتمبر خير دليل. ولذا فالنزعه إلى خلق اعداء مفتعلين "محور الشر" أو إحتلال بلد بحجة مزيفة "الحرب على الإرهاب" أنما يحيلهم إلى أعداء حقيقيين حسب قاعدة "التنبؤ المحقق لذاته" وهو ما يفرض عليها إستلهام منهج بديل لعلاج الظواهر لا توظيفها.

وهنا فان ثمة مطلبين للتيار التوفيقى العربى يطرحهما على التيار النقدى الغربى كأرضية للحوار بينهما باعتبار الأخير هو صاحب المبادرة التاريخية الآن، وذلك حتى يتمكن الأول من الامساك بثقافته هو الآخر وقيادتها نحو الحداثة ومثلها السياسية؛

المطلب الأول: هو أن لا يقوم النظام العالمي علي أرضية مشبعة بالمظالم، من الوارد طبعا وجود بعض التحيزات في الممارسة العملية لكل نظام مؤسسي أيا كانت أركانه، ولكن ما نقصده هنا هو المظالم الكبري التي هي بحجم الخطايا والقادرة علي البقاء في الذاكرة الجماعية عبورا على القرون، وعلى النفاذ إلي الوجدان الفردي لجماعة ثقافية أو قومية ما بحيث تستطيع إشعارها بالإحباط علي نحو مستمر يودي بها إلي الرسوف في حالة من القهر علي منوال حالة القهر العربي الناجم عن الصراع العربي ــ الإسرائيلي منذ سقوط فلسطين، أو عن احتلال العراق بعد سقوط بغداد.

أما المطلب الثاني: فهو الإيمان بتعددية المسارات الثقافية إلي القيم الحداثية والمثل الديمقراطية وعلى رأسها التسامح وهو ما يعني أن تترك،

للمجتمعات العربية حرية الاقتراب منها واكتشافها وتجربتها وتمثلها بطرائقها المختلفة وعبر عمليات تثاقف خاصة لدينا تتطلب منا تكيفات وتحويرات ثقافية لابد منها في أنساقنا الموروثة بما لها من رسوخ عميق في بيئاتنا الإجتماعية وتراكيبنا النفسية ومن ثم تتطلب وقتا طويلا ليتم تغييرها التدريجي البطئ ولكن السلمي الهادئ. فمن المهم جدا إختفاء الإملاءات الخارجية التى تستفز "كرامة" الثقافة العربية الإسلامية، وحتى تشعر الأخيرة بأنها تتحول في اتجاه ما يصلح شأنها ويجمل مستقبلها هي وليس ما يحقق مصالح أو يلبي أهواء الآخرين فينتقص ذلك من كرامتها ويدفعها إلي الرفض والمقاومة.

خاتمة

مصر وإيران خارج إطار المركزية الغربية!

يبدو التباين المذهبى السنى – الشيعى بعدا مركزيا فى قوس الأزمات المحيط بالكتلة العربية من العراق المتفجر بالدماء، الى لبنان الذى يسعى الى ترميم نفسه فى لحظة ما بعد العاصفة التى قد تعود الى الهبوب. كما يبقى هذا التباين فتيلا يحاول كثيرون أن يشعلوه لصالح سيناريوهات عدة للفوضى تختلف كثيرا فى مراميها وأهدافها، ولكنها تتفق على خنق الإرادة العربية. ومن ثم يحتاج العرب اليوم لحوار بناء ينتزع هذا الفتيل من المتلاعبين به، قبل ان تشتعل النيران وينتشر الحريق. ولا يمكن لهذا الحوار أن يتم فى غياب إيران، أو يبدأ من دون مبادرة مصر. ففى تلك اللحظة المشبعة بكل الممكنات والمفتوحة على كل المستقبلات، تبقى الكتل التاريخية الراسخة، والأحجام الديمغرافية الكبرى، والحضارت التليدة من نوع وحجم وعراقة البلدين هى نقطة المفترق سواء بتوثبها وتعاونها للنهوض بعملية الطرد المركزى لعوامل الفوضى. أو بتكاسلها وتناقضها للعب دور المحفز لسيناريو الفوضى، أو الخاضع لحالة الفراغ. ومن ثم فإن المسار التوحيدى للمنطقة، وكذا النزوع التفكيكى، يبدآن من نقطة إنطلاق أساسية تثير هذا السؤال المركزى الذى أطرحه هنا فى الختام ليبقى فى الذاكرة، لأنه لدى سؤال أولى، يؤسس للبدايات، وهو؛

لماذا بقيت مصر بعيدة عن إيران، وإيران عن مصر طيلة النصف الثانى للقرن العشرين ؟. ماذا لو تلاقيا وتحاورا مباشرة تجاوزا للخلافات الصغيرة التى تفرقهما من دون وصاية أمريكية ؟. ماذا لو تحالفا معا لقيادة عالم الإسلام بشقيه السنى والشيعى خروجا من أسر المركزية الغربية التى صنعت صورة كلتيهما فى عيون الأخرى ومنعتهما دوما من التلاقى المباشر والحوار البناء وربما التحالف المثمر؟. فى إعتقادى أن الكثير يمكن أن يحدث، وليس أقله أن الفراغ الإستيراتيجى الذى تعانى منه المنطقة "القلب العربى للإسلام" لم يكن ليوجد

حيث توجد قوة أو إرادة قادرة على أن تملئه وتحميه. ولكن يبقى السؤال الأول.. لماذا لم يحدث هذا التلاقى؟ وهنا تتعدد التفسيرات التى يشيع منها إثنان:

أولهما: المبرر المتعلق بالمذهب الشيعى الإثنى عشرى لإيران، وهو ما لا نظنه مقنعا فى تفسير خلافات البلدين، ليس فقط لأن الخضوع له يعكس حماقة سياسية وضيق أفق ثقافى لدى بلدين من ورثة أعرق حضارات الشرق الأدنى القديم وهما الفرعونية والساسانية بينما يبحث عالمنا المعاصر وكتلة المتصارعة عن مسالك للتعايش الحضارى والحوار الثقافى بل والدينى أحيانا. ولا لأن مصر لم تعرف العنصرية الفجة طيلة تاريخها ضد أى عرق أو دين أو مذهب. أو حتى لأن الثقافة الشعبية بها توفر أهل البيت بالفطرة توقيرا قلما يتوفر، بل بالأساس، وتلك هى المفارقة، لأنها عرفت التشيع الرسمى فى العهد الفاطمى نهاية القرن العاشر الميلادى "٩٦٩ ــ ١١٧١" وقبل أن تتشيع إيران رسميا ونهائيا فى العهد الصفوى "١٥٠٢ ــ ١٧٣٦" بنحو ٥٠٠ عام.

ولم يكن تشيعها آنذاك عائقا ضد تقاربها مع مصر، فبعد عقد واحد منه حدث أبرز تجاذب إستيراتيجى بين البلدين عندما بادر الشاه إسماعيل الأول مؤسس الدولة الصفوية الى التحالف مع سلطان مصر المملوكى "قنصوة" الغورى ضد العثمانين "السنة" فبعث اليه برسول تجاوب معه الغورى وأرسل نحو ٣٠ ألف جندى الى سوريا لقتال العثمانيين، ولكن الأخيرون تمكنوا من هزيمة الجيش المملوكى وإعلان مصر ولاية فى "خلافتهم الإسلامية". وبرغم سوء المآل تبقى الخبرة دالة فى أن وعى التلاقى بين البلدين أعمق من الشعور بالتناقض وخاصة فى لحظات التحدى.

وفى العهد شبه الليبرالى وعلى أرضية علاقة المصاهرة بين العرشين الشاهنشاهى والعلوى عام ١٩٣٩م كان ثمة توافق ينمو بين البلدين، فاحتضنت القاهرة فى عام ١٩٤٧م "دار التقريب بين المذاهب الإسلامية" والتى رعاها من الجانب الإيرانى الشيخ "تقى الدين القمى"، ومن الجانب المصرى المشايخ الكبار محمود شلتوت، وعبد المجيد سليم، ومحمد المدنى. بل وإعترف الأزهر الشريف عام ١٩٥٨ فى ظل وجود الشيخ محمود شلتوت على رأسه، بالمذهب

الإثنى عشرى مذهبا خامسا يجاور المذاهب السنية الأربع، ومن ثم يفتقد هـذا المبرر صدقيته.

وأما المبرر الثانى فينتمى الى الحقبة المعاصرة ويتبلور حول مفهوم "تصـدير الثورة" الذى تبنته إيران منذ ثورتها الإسلامية وأثار قلقا فى المحيط الإقليمـى والعربى حولها. غير ان هذا المفهوم الإشـكالى "تصـدير الثـورة" لا يمثـل خصوصية أو حتى نقيصة إيرانية بحال من الأحوال إذ يبقى تعبيرا عن ظاهرة طبيعية، بقدر ما هو مرتبط بلحظة تاريخية إستثنائية، ولا تنـاقض هنـا بـين الطبيعية والإستثنائية.

ذلك أن انتقال الأفكار عبر الحدود يبدو أمرا طبيعيا تماما وإن فى شكل تدريجى بطىء غير محسوس، ولكنه يتكثف ويتسارع فى لحظات إستثنائية مـن حيـاة الأمم ترتبط فى الأغلب بتحولات ثورية من قبيل تلـك الإنتقـالات المعرفيـة العلمية والفلسفية، أو الإنقلابات التاريخية الجغرافية والصناعية، أو الفـورات السياسية الكبرى القومية والدينية، وجميعها يقود الأمة الى تجـاوز أوضـاعها العادية "المألوفة" ويزيد من قدرتها على الإمساك بمصيرها، ويولد لـديها رؤى طوباوية للتاريخ فتشعر بأنها الأكثر فهما لمنطقه، والأقدر من ثم على التصرف حسب خطته والسير باعتبارها وكيل له على طريق تغيير العالم من حولها بدءا بالخارج "القريب".

فباسم **الحرية والإخاء والمساواة**، وباندفاع شديد، دخلت فرنسا بعـد ثورتهـا الليبرالية – ذروة مثل التنوير – فى صراع مع ممالك أوربا ولربع قرن كامل، حول حق تفسير التاريخ وقيادته تجسيدا للروح المطلق حسب الطموح الفلسفى لهيجل، وتجسيدا للمشروع السياسى الأوروبى لدى ليبينتز، مـا كـاد يفقـدها إستقلالها نفسه بعد هزيمة نابليون فى واترلو أمام تحالف العـروش والتيجـان التى دافعت عن مصالح سياسية واقتصادية مؤكدة منحها التاريخ حق الحضور الموضوعى فيه، والتأثير المنطقى عليه.

وباسم **أكثر الأفكار مثالية عن العدل الإجتماعى**، تطرفت الشيوعية فى الإدعاء بالمساواة الإنسانية المطلقة، والغاء الفوارق بين الطبقات، فألغت الملكية الخاصة وأضعفت العائلة وحاولت الغاء الدين كفكرة ملهمة ومؤسسة تعبدية فى الوقـت نفسه، وطلبت من الناس أن يكونوا غيريين يحبون البشرية عامـة لا الـدائرة

الضيقة من الأهل والأصدقاء وأصحاب الوطن والدين والملة. وبهذه الدعوة المثالية تمكنت روسيا من التمدد فى أوروبا الشرقية، والسيطرة العقائدية والسياسية على مناطق شتى فى أربعة أنحاء العالم، وعلى وعى أربعة أجيال متعاقبة من شبابه. ولكن بدافع من تطرفها وقعت هى نفسها أسيرة تناقضات دعوتها وتعرضت للسقوط، إذ سعت الى قمع الطبيعة البشرية، وحاولت صب التاريخ فى قوالب من الحتميات المسبقة ضد التنوع البشرى والتطور الإنسانى فروعها دهاء التاريخ الذى لم يقبل بأن يشكل الناس على هذا النمط من الأحادية، أو الحتمية وأعادها الى حدودها الطبيعية.

والولايات المتحدة هى نموذج متعدد الوجوه لتلك الحالة، فثمة "**الحلم الأمريكى**" عن وطن تتحقق فيه الحرية كاملة، والمساواة مطلقة، وتتواجد فيه الفرص بغير حدود، وتتعدد المعتقدات بغير قيود حيث الجميع يتضافرون لتحقيق السعادة الكاملة عبر الوفرة المطلقة، وهو الحلم الذى ألهم بلا شك أجيالا عدة من البشر فى كل أنحاء الأرض. وثمة وجه آخر مختلف حفزته "النزعة العالمية المقولبة" أو "العولمة" المحددة فى أطر شبه قسرية ولوكانت ناعمة جذبت البعض، ونفرت الكثيرون حتى داخلها ممن خافوا على أمزجتهم الثقافية من قمع التنميط، أو على حدودهم المستقرة من إجتياح الدخلاء، أو على فرصهم فى العيش من زحف الفاقة. وثمة وجه راهن نقيض لأمريكا الصليبية "النرجسية" تجسده تلك الرغبة الشيطانية فى تكوين إمبراطورية عسكرية تستقى إلهامها من كهوف الزمن الكلاسيكى العتيق، وتدعى إحتلالها لموقع الله وإمتلاكها لأقدار البشر، فإن لم تكن أمريكا هى الله، فهى على الأقل وكيلة الله فى حكم الدول والشعوب وتسيير دفة التاريخ.

ومصر نفسها، فى الحقبة الناصرية، تبقى التجسيد الأبرز للظاهرة إذ طرحت على نفسها قيادة حركة التحرر العربى، وسعت الى تجذير مفهوم "التقدم" وما يحتوية من ديناميكية معرفية وسياسية فى الرؤية العربية للوجود والتى كانت قد إلتبست على مدى قرون خمس برؤى إستاتيكية محافظة على الأصعدة الفكرية والإجتماعية والسياسية ما أخضعها للقوى الإستعمارية المهيمنة، وهو ما دعت مصر "دائما"، وسعت "أحيانا" الى مواجهته فى اليمن والجزائر وغيرهما، وتحملت فى سبيل دعوتها عبئا كبيرا أرهقها ودفع البعض داخلها الى الشكوى

من عبء الدعوة، ورومانسية حاملها، كما دفع البعض خارجها فى العالم والإقليم الى حصارها بل ومحاربتها. وبرغم ذلك تبقى هذه الدعوة/ المرحلة هى "أنبل" ما قدمته مصر من عطاء سياسى وفكرى، إنسانى وتحررى الى أمتها ما يجعلها موضع ذكرى وحنين لدى كل عربى يتوق الى الفعل الموجب فى حركة التاريخ.

وهنا يأتى دور إيران مع الظاهرة، فمع نجاح ثورتها الإسلامية ضد نظام بالغ الإستبداد وراسخ القدم فى التحالفات الأمريكية المهيمنة على المنطقة كلها، لم يكن غريبا أن تنتعش آمال الثوار فى إيران، وقد سيطروا على مصيرهم، فى تعميم نموذجهم لما يتصورونه الطريق الوحيد لإعتاق العالم الإسلامى من السيطرة الغربية. ومن ثم فلا غرابة فى أن تتوجه إيران نحو الجوار العربى "الإسلامى" لتبليغ ما إعتقدت أنه رسالتها التى وضعها التاريخ فى أعناقها. وفى المقابل يبدو الأرق العربى طبيعيا من رسالة إيران، فمضمونها قد يكون حادا لا تطيقه أمة تعيش الحالة العادية، وطريقتها فى التعبير قد تكون إنقلابية لا تتحملها دول محافظة، غير أن طبيعية ذلك الأرق لا تجب أن تحيله الى عداء قومى أو تناقض إستيراتيجى مزمن، بل الى محاولات للتفهم والتوافق حول المشترك الذى يجعل من الجميع إطارا حضاريا واسعا خارجه قريب.

وتلك المحاولة هى دور مصر بالضرورة لأنها الأولى بتفهم طبيعة الرسالة/ المرحلة الإيرانية التى عاشتها هى نفسها سلفا، خصوصا وأن ايران ما بعد الخمينى قد أبدت استعدادا كبيرا لتجاوز التطبيقات العنيفة لهذا المفهوم وما أثارته من قلاقل مع ولايتى الرئيسين رافسنجانى ثم خاتمى، وهو المسعى الذى يمكن فهمه باعتباره تجسيدا عمليا للسنة التاريخية المألوفة عن طبيعة الإجتماع السياسى والقائلة بقوة دفع التجربة الواقعية نحو العقلانية السياسية حيث تكون الخيارات العملية استلهاما لضغوط الحياة اليومية، ومطالبات الواقع المعاش على شتى الأصعدة. ومن هنا يمكن فهم كيف آلت مثالية الثورة الإيرانية الى واقعية الدولة الإيرانية وإن بقي نزوعها العميق الى تأكيد الكبرياء القومى، وهو ما يضع مصداقية هذا المبرر موضع المساءلة.

وإذ يفتقد هذان المبرران الشائعان شرعيتهما، تبدو الحاجة الى تفسير موضوعى لحال العلاقات المصرية – الإيرانية يتمثل، ربما، فى خضوع طرفيها لأسر

المركزية الغربية الذى تمكنت من تصنيع صورة نمطية سلبية لكل طرف منهما لدى الآخر بحيث يتراءيان، ويتفاعلان من خلاله كوسيط فحرمهما بذلك من التفاعل المباشر المستقل والخلاق.

ففى النصف الثانى للقرن العشرين مثلا قامت الولايات المتحدة بهذه العملية مرتين على الأقل ضد الطرف الذى كان يبدو أكثر وعيا بأصالته الحضارية، وأكثر قدرة على صياغتها إستيراتيجيا، ورغبة فى قيادة المنطقة – التى وسمها الغرب بـ "الشرق الأوسط" والتى نسميها "الشرق العربى الإسلامى" أو "القلب العربى للإسلام" – نحو فلك مستقل عن النفوذ الغربى بالمعنى الحضارى الواسع. وقد نجحت فى تحقيق هذه العملية عبر آليتين متكاملتين؛ **الأولى** هى شيطنة هذا الطرف المدرك والمريد لإستقلاله الحضارى. **والثانية** هى إحتواء الطرف الآخر الذى إفتقد ،مؤقتا، أصالة الرؤية الحضارية أو نفاذ الإرادة الإستيراتيجية سواء بالإغداق عليه ليكون عضوا فى النادى الغربى بشتى صوره، أو بتحييده حتى لا يتكامل عطائه مع الطرف الآخر، ما حرم البلدين دوما من نقطة إنطلاق مشتركة إذ تم تبادل المواقف بينهما عبر الحاجز الغربى، وذلك بالهام حدث كبير من نوع ما على الجانبين:

الحدث الأول : يخص مصر ويتمثل فى ثورة يوليو ومشروعها التحررى الذى بدا آنذاك وكأنه النقيض الكامل للمشروع الإستعمارى الغربى وخاصة بعد حرب السويس، بينما كانت إيران الشاه قد دخلت فى صداقة مع الولايات المتحدة، ومن ثم إسرائيل، وصارت عضوا فى سلسلة الأحلاف الغربية حول الإتحاد السوفيتى، والمشروع القومى العربى لمصر. ولذا فقد ساءت العلاقات بين البلدين فى النصف الثانى للخمسينات حتى قطعت تماما عام ١٩٦٠، فلم يكن صعبا أن ترسم الآلة الدعائية الغربية صورة سلبية لمصر عبد الناصر، كما لم يكن ثمة قيد على نفوذ هذه الصورة لدى الإيرانين وبالأحرى النخبة الإيرانية الضالعة فى الإستيراتيجية الغربية. وعندما جاء الرئيس السادات الى الحكم، وتبنى رؤية نقيضة للعالم، كان ثمة عقد من الصداقة بين البلدين انتهى على نحو درامى بخلع الشاه فى إيران مع هبوب الثورة الإسلامية، وإغتيال السادات فى مصر بهبوب

العاصفة الإرهابية إذ بدت المنطقة كلها وكأنها فى حالة بحث متوتر ثورى أو دموى عن أصالتها الحضارية.

والحدث الثانى يخص إيران ويتجسد فى ثورتها الإسلامية التى دفعتها الى تبنى مشروع سياسى إنقلابى على السيطرة الغربية، حيث وفرت أزمة الرهائن المحتجزين فى السفارة الأمريكية بطهران مادة مثالية لصناعة صورة "شيطانية" لإيران أجادت الدعاية الغربية إستغلالها، ولم تكن هناك مناعة مصرية ضدها فاستقرت صورة إيران السلبية فى عيون النخبة المصرية واستمر تردد مصر فى الإقتراب منها لرغبتها فى البقاء ضمن الفضاء الموالى للغرب، وفى الحفاظ على صداقتها مع الولايات المتحدة.

لقد تقارب البلدان وتباعدا إذن عبر الحاجز الغربى، ووقعا فى أسر صورة نمطية صاغتها الدعاية الغربية، وخضعت علاقتهما معا لعلاقة كلتيهما بالولايات المتحدة والغرب فانقطعت السبل أمام تواصلهما، وحرم العالم الإسلامى من تشارك إثنتين من أبرز كتله الإستيراتيجية تجسدان تقاليد إثنتين من أعرق حضارات العالم، وتحوزان موضعين من أفعل مواضع التاريخ، وموقعين من أبرز مواقع الجغرافيا لإحاطتهما بالجزيرة العالمية وملامستهما لقلب الأرض، ولو حدث ذلك التواصل وتلك المشاركة لربما تغيرت أشياء كثيرة فى مقادير المنطقة ومصائرها، ليس بالضرورة نحو المواجهة مع الغرب ولكن بالأساس فى شروط وسقوف تعامله مع المنطقة التى تجسد "القلب العربى للإسلام".

غير أن شرط أساسيا لابد منه لهذا اللقاء ليكون ممكنا ناهيك عن أن يكون ناجحا، وهو ضبط إيقاع الحركة على حجم القدرة لدى البلدين، فالرؤية لابد وأن تنسجم مع الفعل، والفعل لابد وأن يتسق مع القدرة، وإن ظلت هناك مساحة أوسع للأمل فيجب أن تكون فى سياق المعقول وفى إطار الممكن، لا فى سياق المثال، أو فى إطار المستحيل . فماذا يعنى هذا أو يفرض؟.

يعنى أن مصر مطالبة بتوسيع هامش الرؤية لتستعيد صفاءها القديم الذى هجرته، وأن تزيد مساحة الأمل الذى كان لديها وفقدته، ظنا منها أنها أن قوامها قد تقزم فلم يعد يسمح لها بالرؤية أو بالإرتقاء، وأن جسدها قد وهن فلم يعد

يلبى مطالب عقلها. فعلى مصر إذن أن تزيد مساحة الأمل لأن المعقول لديها أكبر مما تعتقد، والممكن لها أبعد مما تتصور الآن.

ويفرض على إيران أن تنتبه جيدا الى حكمة التاريخ التى تدلنا على اتجاهات معقولة لدورة الأفكار تقول: أن كل فكر مثالى يتعالى على الواقع، يتعرض للإنحراف الى نقيضه المتطرف والعنصرى فى لحظة تحولية ما، وكلما زادت مثاليته زادت حدة تطرفه وهو يسعى للسيطرة على المصير الإنسانى كله وصبه فى قوالب محددة سلفا.

كما تؤكد على أنه: كلما ازداد الفكر تطرفا وتنامت نزعته الصدامية كان فشله أكثر إحتمالا، وتراجعه أكثر عمقا ولعل هذا هو السبب فى أن كل الأفكار المثالية، والحركات السياسية الراديكالية ظلت دائما على هامش التاريخ. ربما تعالى وقع خطواتها أحيانا، ولكن كقوة معارضة للتاريخ الرسمى الذى تحكمت فى صناعته القوى والأفكار الأكثر إعتدالا وعقلانية واستلهاما لسنن الإجتماع البشرى وإحتراما لتنوعه وتباينه وتناقضه، بل وتسامحا مع ضعفه وعقد نقصه أحيانا، دون محاولة السيطرة الكاملة علي مسيرته أو لى عنقه باتجاه حتميات من أى نوع، دينية كانت أو فلسفية أو سياسية.

فعلى مصر إذن أن تخطو الى الأمام ثلاث خطوات، وفى المقابل على إيران أن تخطو الى الخلف خطوة واحدة لتتضبط لدى كلتيهما مساحة الحلم على القدرة، والرؤية على الفعل، ويكون التلاقى بينهما ممكنا عند تلك النقطة الحرجة على مفرق دورة الأفكار، ومفترق حركة التاريخ ، فيكون السير الهادىء الآمن نحو المصير المشترك خروجا من فلك المركز الغربى المهيمن، باتجاه قيادة عالم الإسلام الواسع.